14 me Année No. 667

Lundi—15—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٣ جادى الأولى سنة ١٣٦٥ — ١٥ أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

مستقبل الجامعة الأزهرية

للأستاذ عباس محمود العقاد

الجامعة الأزهرية معهد يراد به البقاء، ما فى ذلك ريب عند أحد من المصريين، لأنها مرجع العلوم الدينية والثقافة العربية، وهى عدا هذا أقدم جامعة فى العالم بأسره، فالأمة التى تملكها قمينة أن تحافظ عليها وتستديم بقاءها وازدهارها. ومن أول أسباب الاستدامة أن يتجدد التوفيق بينها وبين مطالب الزمن بغير انقطاع، وأن تكون مطلوبة لما حضر ولما سيأتى، ولا يقتصر طلبها على ما مضى وكفى.

ومع هذه الرغبة الوثيقة، لا نرى فى الأمر مشكلة تعترض الراغبين فى دوامها ودوام ازدهارها إلا من ناحيتين لا يصعب تذليل العوائق فيهما: أولاهما الثنائية فى نظم التعليم بمدارس الأمة الواحدة، والثانية أن تكون نتيجة التعليم فى الجامعة الأزهرية تخريج « طائفة معاشية » يربط بعضها ببعض تحصيل المعاش أو حاجتها هى إلى المعاش، وإنما الواجب أن يكون بقاؤها منوطا بحاجة الأمة إليها لا بحاجتها هى إلى الأمة، ولا سيما حاجتها من الوجهة المعاشية دون غيرها.

وقد أحسنتم التوصيف والتعليل حين أشرتم فى عدد الرسالة الماضى إلى « بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة ».

فإننا لا نعرف فى البلاد الإسلامية داعيا إلى انفصال طائفة من الطوائف بمنهج من مناهج العلم أو مسلك من مسالك المعيشة، لأن رجال الدين من المسلمين لا يعتزلون الحياة ولا ينفصلون عنها ولا يلوذون بالصوامع ولا يترهبون، ويستطيع الرجل منهم أن يسلك فى معاشه مسلك المهندس والطبيب والصانع والفيلسوف، وكل ذى عمل من الأعمال الدنيوية التى يزاولها سائر الناس. فإذا استعد للدراسة كما يستعد المهندسون والأطباء والصناع والفلاسفة؛ فليس فى ذلك ما يخل بوظيفته المقبلة أو ينقص من عدته التى يستعد بها لغده. بل هى عزلة التعليم التى تضيره وتقطع ما بينه وبين أبناء العصر من صلات المعيشة وأسباب التفاهم وتبادل الشعور، فلا تزال الفجوة بينه وبين عصره بابا للاختلاف والاشكال.

فمن الواجب قبل كل شىء أن نبطل الثنائية فى نظم التعليم بالمدارس الابتدائية والثانوية، وأن يتدرب الأزهرى للتخصص فى علومه العالية كما يتدرب كل مصرى للتخصص فى جميع العلوم العالية ما دام فى دور التأهب والتحضير. فيتعلم الأزهرى اللغة الأجنبية ويتعلم المبادىء الضرورية من معارف العصر الحديث، ويبدأ فى التعلم وفى إمكانه بعد أن يتبين حقيقة ملكاته وميول عقله ونفسه أن يصبح من الأطباء أو علماء الفلك والرياضة كما يصبح من فقهاء الدين أو فقهاء اللغة العربية.

وقد أردتم فى مقالكم القيم بالعدد الماضى من الرسالة « أن

يقتصر فى التعليم الجامعى فى الأزهر على كليتين اثنتين : كلية الدين وتندمج فيها كلية الشريعة وكلية أصول الدين . وكلية اللغة وتندمج فيها كلية اللغة العربية ودار العلوم ، وقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعتى فؤاد وفاروق ، وتشترك الكليتان فى الدراسة العميقة للغتين العربية والأوربية ، وتنفرد كلية اللغة بتاريخ الآداب العربية والأجنبية ، كما تنفرد كلية الدين بتاريخ الأديان السماوية والأرضية ، وذلك بالطبع فوق ما تختص به كلتا الكليتين من علوم الدين أو من فنون اللغة ، وما يتصل بهذه أو بتلك من العلوم الحديثة ... »

وعندنا أن هذا الرأى فى إجماله مقبول لا يكثر عليه الخلاف ولا أرى من جانبى ما أخالفكم فيه قبل الدخول فى التفصيلات .

أما التفصيلات ، فهى مما يعرض لنا عند البحث فى تقسيم الكليات ، وفى مدد التعليم التى يحتاج إليها الطالب الجامعى فى كل منها .

فنحن نعتقد أن المجال يتسع فى الجامعة الأزهرية لثلاث كليات على الأقل : إحداها للدين الإسلامى ، والثانية للدراسات الدينية والفلسفية ، والثالثة لدراسة اللغات والآداب ، ويجد الطالب فى كل واحدة منها ما يشغله سنوات قبل الوصول إلى دور التخصص والاستيعاب .

سمعت فى حياة الشيخ المراغى أنه رحمه الله كان يفكر فى تدريس « مقارنة الأديان » بالجامعة الأزهرية ، فاستكبرت الاقدام على ذلك قبل تمكين المقدمات التى يتطلبها هذا البحث الجسام ، فان علم المقارنة بين الأديان أخطر العلوم على من يهجم عليه بغير أهبة وتمهيد ، وأنفع العلوم لمن يشارفه بعد تأهب صالح وتمهيد طويل .

وهذا العلم وحده — وما يتصل به من المسائل الإلهية — يستغرق السنوات للاحاطة به والايغال فى شعابه ودروبه ، وهو يدرس ببعض الاسهاب تارة وببعض التلخيص تارة أخرى فى الجامعات العلمية والجامعات الدينية ، ويلتقى بعلوم أخرى لا محيص عن الإلمام منها بالقدر المفيد ، كعلم الإنسان وعلم الأجناس البشرية . وعلم اشتقاق اللغات ، ودلالات الكلمات التى تدل فيها على أسماء الأرباب وشعائر العبادات .

فدراسة هذه المباحث لازمة للطلاب الأزهريين وهم أحق بها من سائر الطلاب ، ولا يتأتى لهم أن يدرسوها مع التخصص لغيرها أو التوسع فى أبواب التخصص الأخرى ، وإنما يتوسمون هنا ويأخذون بأطراف من علم يحتاج إليه رجل الدين .

على أن « القارنة بين الأديان » حظ مشترك بين المسلمين وغير المسلمين ، ويجوز أن يدرسه المسيحى والإسرائيلى والبوذى ومن لا دين له ، كما يجوز أن يدرسه الطلاب الأزهريون .

لكن الموضوع الذى تتعين دراسته فى الجامع الأزهر ، ولا يعقل أن يستوفيه طلاب جامعة من جامعات الدنيا غير الجامعة الأزهرية هو موضوع المدارس الفكرية الإسلامية التى أنشأها المتكلمون والمعتزلة وأئمة التصوف والحكمة فى الشرق والغرب من الصدر الأول إلى أواخر الدولة الفاطمية ، فإن هذا المحصول الهائل من التفكير الإنسانى أمانة لا بد لها من حفيظ بين أمم الحضارة الإنسانية . فن عساه يكون أولى بحفظ هذه الأمانة من معاهد الأزهر وعلمائه ؟ ومن أين لهذه المذاهب وهذه الدراسات من يفهمها ، ويصبر على تمحيصها واستخلاص زبدتها فى غير مصر والبلاد العربية ؟

إن المستشرقين لا يفهمونها ولا يؤتمنون عليها ، ولا أعرف فيما اطلعت عليه من كتبهم كتابا يدل على حسن فهم وحسن إنصاف مجتمعين ، فإن وجد من يفهم على الندرة ، فهم متهمون فى الإنصاف ، وإن وجد من ينصف فليس هو من الصابرين على التعمق والتفرغ للتحصيل . وليس من المروءة أن نكل إلى غيرنا ما نحن أحق به من واجباتنا وأعمالنا ، وليس فى غير المعاهد الأزهرية مكان لاستيفاء هذه الواجبات والأعمال .

ومن الإجحاف أن نستخف بمحصول هذه المدارس الفكرية لأنها فى الواقع تشتمل على كثير من النفيس القيم ، كما تشتمل على كثير من البخس الزهيد . ولا إخال أن مسألة من مسائل الفلسفة التى تصدى لها حكماء أوربة فى قديم العصور وحديثها لم تدخل فى نطاق هذه الدراسات على وجه من الوجوه ، وقد وصل بعض المفكرين الإسلاميين فى مسائل منها إلى مقطع القول الذى وقف عنده بعدهم خلفاؤهم فى مباحث المنطق والحكمة الإلهية من الأوربيين وغير الأوربيين . ولعل البخس الزهيد

الذى أشرنا إليه يفيد فى دلالته التاريخية أو دلالته النفسية ما يكافىء العناء فى تحصيله ويعوض الباحثين عن غثاثته وقلة غنائه ، فلا يضيع فيه الوقت بغير جزاء .

هذه المادة الزاخرة وما يقترن بها من مواد المقارنة بين الأديان السماوية والأرضية أعظم من أن تضاف كما تضاف العلاوة على حمل التخصص فى الدراسات الأخرى . لأن أبواب البحث فى الدين الإسلامى وحده تستغرق السنوات بعد السنوات إذا لوحظ فيها أن تحيط بجوانب الفقه والتشريع والتاريخ والتطبيق على المذاهب الإجتماعية التى تتمخض عنها أطوار الأمم جيلا بعد جيل ، ومن القصور أن يفوت العالم المسلم تحصيل المعلومات عن تلك المذاهب الاجتماعية ، وهى تتطلب منه رأيا وردا وإقناعا لمن يحسبونها مغنية عن إصلاح الدين أو مناقضة لقواعد الدين فى الإصلاح . فهل يتأتى للعالم المسلم فى أربع سنوات أو ست سنوات أن يتوسع هذا التوسع فى علم دينه ، ثم يتوسع فى الوقت نفسه توسعا مثله فى علوم الديانات ومذاهب المسلمين وغير المسلمين ؟

والذى يصدق على كلية الدين يصدق على كلية اللغة العربية . لأن تعلم النحو والصرف والبلاغة لا يجدى بغير تعلم الأدب وفروعه ؛ وتعلم الأدب وفروعه فى لغة واحدة لا يتمم ثقافة الأديب المتخصص لهذه الثقافة مع هذا الإتساع فى آفاق الكتابة وهذا التنوع فى قواعد النقد ومناهج التعبير ، وهذا التعدد فى شواهد كل قاعدة من قديم اللغات وحديثها . فلا بد مع اللغة من أدب ، ولا بد مع الأدب العربى من آداب أمم أجنبية ، ولا بد مع هذا جميعه من مشاركة فى بحوث اللغة الإنسانية نفسها ، وهى التى تسمى عندهم « بالفيلولوجية » . لأنها دراسة لا بد لها من مكان تدرس فيه ، ولا مكان لدرسها غير الجامعات الكبرى ولا سيما الجامعات التى تزود الطالب بكل ما يحتاج إليه فى ثقافته الأدبية واللغوية ، وليست ست سنوات أو ثمانى سنوات بالوقت الكثير على هذه المطالب اللازمة التى تنفق فيها الأعمار الطوال .

* * *

وأيا كان الرأى فى عدد الكليات أو عدد السنوات ؛ فالمهم فى الأمر أن ننتهى بالتقسيم إلى نظام واحد فى التعليم ، فلا يبقى للثنائية أثر بين كليات الجامعة الأزهرية وغيرها من الجامعات ، ولا يحسب الفرق بينها جميعا إلا كما يحسب الفرق الآن بين كلية الطب وكلية الزراعة أو كلية الآداب .

ويومئذ يجد العالم الأزهرى مكانه من وظائف الحكومة كما يجد الطبيب والمهندس والضابط أمكنتهم فى كل ديوان يحتاج إليهم ، ومن لم تتسع لهم الدواوين فشأنهم فى ذلك شأن المتعلمين العاملين فى الحياة الخارجية ، لأنها تتسع لهم وتزداد سعة كلما شاعت المعرفة وتشعبت منادح التثقيف والإطلاع . ويحق للعالم الذى تفتقر مباحثه إلى التشجيع الحكومى ، ولا تقوم على إقبال الشعب وحده أن يعتمد على الرتبات والمكافآت التى رصدت فى الأوقاف للعلماء الأزهريين من قبل النظام الحديث .

ويبدو لنا أن الجامعة الأزهرية لن تلقى فى طريقها عقبة تزعج أبناءها إذا زالت الثنائية من التعليم ، وقام التعلم فيها على إخراج أناس تحتاج الأمة إليهم ، ولا يكون قصاراهم من السعى أن يحتاجوا إلى الأمة فى تدبير سبل المعاش .

عباس محمود العقاد

من صميم الحياة :

الخـــادمة ... !

هذه قصة (الشكلة) التي قلما تخلو منها دار في مصر والشام ... (ع)

للأستاذ علي الطنطاوي

قال : إن لديّ قصة أحب أن أقصها عليك ، وإنك لتعلم أني لست ممن يؤلف القصص ، ولست ممن يحسن الاستعارة والتشبيه وسائر أبواب المجاز التي تعلمنا أسماءها في المدرسة ، فلا تأمل أن تسمع مني قصة أدبية معقودة من وسطها بعقدة فنية ، مردودة الأول على الآخر ، فيها الصورة النادرة ، والفكرة المبتكرة ، والأسلوب البارع ، فليس عندي من ذلك شيء ، وإنما هي واقعة أرويها كما رأيتها وسمعتها ، وإن فيها لدرساً نافعاً لمن يرى الحياة مدرسة ، فهو يدأب على الاستفادة منها والانتفاع بها ، فهل تحب أن تسمعها ؟

قلت : نعم

قال : لا أدري من أين أبدأ القصة لتجيء محكمة الوضع يرضى عنها أهل الأدب ، فدعني أبدأها من نصفها ، فما لك في أولها كبير نفع ، وإن أولها ليلخص مع ذلك في كلمة ، هي أن لي أقرباء إخوة ثلاثة شباباً أعزاباً يقيمون مع أمهم العجوز التي ربتهم وقامت عليهم منذ تركهم لها أبوهم أيتاماً صغاراً ، حتى إذا كلّت وهرمت ، وعجزت عن خدمة الدار ، ذهبوا يفتشون لها عن خادم تعينها ، ولو فتشوا عن ثلاث زوجات لهم لكان ذلك أهون عليهم وأدنى إليهم ، فلما طال التفتيش وزادت الحاجة ، وجدوا بنتاً من (التواني) فقنعوا بها ، وأنت تعلم أن (التواني) قرية منزوية في حدود (القلمون) الأدنى ، مما يلي (القطيّفة) ضائعة بين تلك الأودية القفرة والجبال ، وأن أهلها من أقذر القرويين وأجفاهم وأبعدهم عن المدنية ، على صحة فيهم وجمال . وكانت بنتاً — كما يقولون — ذكية ، فسرعان ما ألفتهم وألفوها ، وأقامت فيهم سنين طويلة ما أنكروا منها شيئاً ، ولم أرها أبداً على كثرة ما كنت أتردد على الدار ، حتى كان اليوم الذي جعلته مبدأ قصتي هذه ...

* * *

وكنت أزور أقربائي هؤلاء ، فدعوني إلى الشاي ، فإذا هي تدخل فتقدمه إليّ ، وإذا فتاة في نحو السادسة عشرة قد تخمرت بخمار أبيض لفّته من فوق رأسها إلى ما تحت ذقنها ، فعل القائمة إلى الصلاة ، فسترت به شعرها وجيدها ، وبدا منه وجهها مدوّراً أبيض مورّداً يطفح بالصحة والصبوة ، ويشعّ منه السحرُ والدلال ، وكانت تلبس ثوباً قصيراً لا يكاد يعلو عن الركبتين ، يكشف عن ساقين بضّتين غضّتين ممتلئتين في غير سمن ، ممشوقتين في غير هزال ، مصبوبتين صبّ التمثال ، وفوق الثوب صدار من وشي رقيق كالذي تتخذه أنيقات الخادمات ، قد شدّ شدًّا ، فهو يُبرز من ورائه نهدين راسخين ، يلقيان عليه ظلاً لها خفيفاً لا يعرف موقعه من النفس إلا من قرأ سطور النهود في صدور العذارى ... وكانت تحمل الشاي بأ كف كأنها خلقت بلا عظام ، وكان جسمها ينبض بالعاطفة التي تلين أقسى الرجال ، وتستخرج الصبوة من قرارات النفوس فتظهرها ، ولو قيدتْها قيود من الخلق المتين ، ولو غطّتْها ستُور من الهمّ الدفين ، ولو أنساها صاحبَها علمٌ يشتغل به ، أو مال يسعى وراءه ، ولو أن الصبوة قد ماتت ، لردّها هذا الجمال المطبوع حيّة ... أما عيناها ، فدعني بالله من وصفهما ، فما أدري ما لونهما وما شكلهما ، فإن لهما سرًّا يشغلك عن التفكير في وصفهما ... إنهما تروعانك فتبقى معلقاً بهما ، فإذا حاولت أن تضبط نفسك وتعود إلى ما كنت فيه ، لم تشعر إلا وأنت قد عدت إليهما ... إن فيهما مغناطيس يجذب الأبصار والقلوب ... !

فلما خرجت ، قلت : أهذه هي الخادم القروية التي جئتم بها من (التواني) ؟

قالوا : نعم .

قلت : فأخرجوها من هذه الدار ، فإنها أخطر من البارود !

فضحكوا وعدّوها نكتة ...

* * *

وعدت مرة أخرى ، فإذا هي بلا خمار ، فسألتها عنه ، فقالت

— ويا ليتها لم تقل ، فما كنت أدرى أن لها مع جمالها هذا الصوت الذى رنّ كأجراس الفضة فى مواكب الأحلام . أو كرنّات الميدان فى خيال متذكر ليلة غرام — قالت :

— إنى قد استثقلته فألقيته أمام الأقرباء ، وأنت منهم (مُشْ هيك) ؟

وشفعتها ببسمة من فيها ، وغمزة من مقلتيها ، وهزة من كتفيها ... فما هذه البنت ؟ ! ومن أين لها هذا كله ؟ ! وحياتك لو أنها ربيت فى مسارح (مونمارتر) فى باريز لكان هذا كثيراً منها ، فكيف تعلمته فى مزابل (التوانى) ؟ !

وعبستُ فما أحببت أن أوغل معها فى هذا الطريق ، فولّت ترقص رقصاً لا تمشى مشياً ، وشعرها الذهبى حقاً لا تشبيهاً ، المنشور على كتفيها وظهرها ، البالغ حقويها يرقص معها !

وعدت بعد ذلك ، فإذا هى قد جزّت شعرها على (المودة) ، وأمرّت يد الزينة على وجه ما يحتاج إلى زينة ، وطرحت صدارها ، ولبست ثياب فتاة غنية مدللة ، لا ثياب خادم ، فانفردت بأكبر الأخوة من أقربائى فقلت له :

— إنك أنت واخوتك من أمتن الناس خلقاً وأقومهم سيرة ، ولكن هذه البنت تفتن والله العابد ، وتستزل الزاهد ، وتحرك الشيخ الفانى .. وإنها لتسحر بكل نظرة وكل حركة ، ويكاد جسمها يتفجر إغراء بالمعصية ، وإذا أنتم أبقيتموها فى هذه الدار فما أظن الأمر ينتهى بسلام !

واستجاب لما قلته له ، ورآه حقاً ، فأخرجها وأدخل مكانها زوجة صالحة ... !

* * *

قال : ودخلت البنت داراً أخرى ، دار قوم مترفين منعّمين لا يسألون عن المال أين ذهب ، وكانوا كلهم ثلاثة : أباً تاجراً جاهلا ، همه عمله فى النهار ، وسهراته فى الليل ، وأمّاً شغلها ثيابها وزياراتها واستقبالاتها ، وولداً شاباً فى العشرين طالباً فى الجامعة صاحب جد ودراسة وخلق ودين ، غير أنه كان — ككل الصالحين من لداته — يطوى صدره على مثل البارود المحبوس فى القنبلة إذا طار منها مسمار الأمان ، أو صدمتها صدمة فرجّتها تمزقت ومزقت من حولها ! وكانت الصدمة لها هذه الخادمة اللعوب !

وبدأت من اليوم تولى اهتمامها صاحبنا الذى أسميه (الشاب) كراهة أن أصرح باسمه ، وتنسج حوله خيوطها .. فإذا ناداها لحاجة له — ولم يكن له بدّ من أن يناديها — قفزت قفزة الغزال وأقبلت تحفّ بها شياطين الشهوة ... فتراه منصرفاً عنها ، فتبسم له ، وتسأله عما يريده ، بصوت يقطر فتونا ، وتسلط عليه من عينيها مغناطيس مكهربا يذيب القلوب ، ولو كانت من صفا الجلمود ، وإن أعانته فى رفع نضد ، أو تسوية كرسى ، أو ناولته شيئا ، دنت الملعونة منه حتى لامست بهذا الجسم اللدن الدافئ المكهرب ، جسمه القوىّ القَرِمَ ... إلى (اللحم) ! ... أو قرّبت وجهها الفتان من وجهه حتى ليحسّ لسع أنفاسها ، ويشم رائحة جسمها ، وإنها لأفتن من كل عطور الدنيا وطيبها ، وأين المطر من ريح جسم المرأة ؟ أو تتعمد حركة تزيح ثوبها القصير لحظة عن بياض فخذيها . وكان المسكين بشرا ، اجتمعت عليه صبوة الحب فى نفسه ، وإغراء الجمال فى خادمته ... وحماقة أبويه اللذين جاءاه بها وغفلا عنه وعنها ، وصارا يتركانه معها وحيدين فى الدار طول النهار ، حتى لقد بشاها مرة تناوله الصابون فى الحمام ... وثار فى أول الأمر عليها ، وأعرض عنها ، ثم أحسّ أن سمّها سرى فى جسده وروحه ، فاستنفر آخر قوى الفضيلة فى نفسه وألح على أبويه فى إخراجها من المنزل ، فأبيا ، وكيف يفرطان فيها وقد وجداها بعد طول البحث ، وكبير العناء ؟ وهل تدع (الستّ) زياراتها وسينماها ، وتشتغل هى : بالطبخ والكنس لمجرد أن البنت الخادمة جميلة و (دلّوعة) ويخشى منها ؟ كلام فارغ !

هكذا كان يفكر الأبوان المحترمان .. وضُربا بالعمى عن حقيقة لا تخفى على عاقل ، هى أن الرجل والمرأة حيثما التقيا وكيفما اجتمعا : معلماً وتلميذة ، وطبيبا وممرضة ، ومديرا وسكرتيرة ، وشيخاً ومريدة ، فإنهما يبقيان رجلا وامرأة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما خلا رجل بامرأة (هكذا ، على الاطلاق) إلا كان الشيطان ثالثهما » !

ومرض الشاب ، وعجز عن الاحتمال ... فكانت الخادمة هى التى تقوم على خدمته ، وتصرم الليل كله ساهرة عليه ، وتبدل ثيابه فتراه كما هو وتستبيح بالنظر واللمس كل إصبع فى جسده ، وهو لا يحسّ بها ؛ حتى إذا تماثل للشفاء ، ومرّ فى طريق النقاهة

رآها إلى جانبه ، وكان المرض قد أضعف عزمه وأوهن إرادته ، فانكسر السد وطغى الحب ... وفي ليلة كان فيها النعاس قد نال منها ، حلف عليها إلا أن تستريح وتنام ، ولم يكن في الغرفة سرير ، فاندست معه في سريره ... وكان هذا أكثر من أن يحتمله أعصاب رجل في الدنيا ، فطار النعاس ، وكانت النتيجة المحتومة لهذه المقدمات ! ودخلت (الست) في الصباح ، فرأت الخادمة بين ذراعي ابنها ! !

صحت البنت من سكرتها ، وصحا الأهلون وأرادوا إصلاح ما فسد ، وهيهات ! إن الماء قد انسفح على الرمل فمن يردّ الماء المسفوح ؟ وعود الكبريت قد احترق فمن يعيد العود المحروق ؟ وعرض البنت قد مزق فمن يرتق العرض المزق ؟ لا أحد !

ووثبوا يفتشون كالمجانين عن طريق للخلاص ، وأقبل الشيطان مرة ثانية ، وكانت المؤامرة ، وانجلت عن ستر هذه الجناية بجناية أخرى ، هي أن ترد البنت إلى أبيها الذي يطلبها لزوجها من ابن عمها ، وقبلت : وماذا تصنع إذا هي لم تقبل ؟

وكان الفصل الآخر من المأساة وإني سأختصره اختصاراً :

هذه البنت الحلوة المستهترة التي ذاقت طراوة الحضارة ولينها وحريتها وفسوقها وعريها ، عادت إلى القرية المنقطعة في أودية (القلمون) الأدنى وجباله ، لتعيش حياة قروية قذرة صعبة ، ولكنها طاهرة مستورة مقيدة ، لتلبس الملاءة الزرقاء الشاملة بعد (الروب) الذي لا يستر ربع الجسد ، والسراويل البالغة الكعبين بعد (الكلسون) الذي لا يتجاوز طوله الإصبعين ، وتشتغل في الحقل بالأكف التي كأنها خلقت بلا عظام والأظافير ذات (المانيكور) ، وتأكل بعد (الكاتو) والفراني[1] خبز الشعير ، وتعاشر بعد شباب دمشق البقر والحمير ، وتمشي إلى الإصطبلات بدل السينمات .

دبّر الأمر على عجل ، وعقد العقد ، وسيقت العروس (الشامية ...) إلى القرية ، وحسب ابن العم كأنما رأى ليلة القدر فدعا فهبطت عليه حوراء من حور الجنان ... وكان الدخول ، وتجسم خيال المسكين فكان واقعا ، والحلم صار حقيقة ، واحتوى بين ذراعيه الخشنين ذلك الجسم الذي تتقطع عليه نفوس أبناء الأمراء حسرات و ... فإذا الثمرة مقطوفة !

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما ذا ؟ صار ابن العم في السجن ، والبنت في القبر ، وافتضح الشاب فضيحة لن ينجو من آثارها مهما عاش !

علي الطنطاوي

(١) الفراني الفرنية هي الكاتو بعينه — راجع المعاجم مادة (فرن) .

د . هـ . لـــورنس

D. H. LAWRENCE

للأستاذ فخرى قسطندى

لعل د . هـ لورنس أجدر القصصيين المحدثين بالدراسة والبحث وأحقهم بالذكر والتنويه . فهو ظاهرة طبيعية فذة كتلك الظواهر التي تبرز إلى عالم الوجود كلما ارتقى الفكر وتقدم العصر وتمقدت الحضارة . وهو كغيره من الكتاب له نواح من الإجادة والافتتان يغبطه عليها القارىء والناقد ، وله نواح من النقص والضعف ينعيها القارىء والناقد أيضا . وتفسير ذلك هين ميسور ، ذلك أن لورنس كان فنانا مطبوعا ، ولكنه يخشى أن يتملك الفن زمام نفسه ويطغى على حواسه ، فهو يضطرب لذلك أشد الاضطراب ، ويجزع لذلك أشد الجزع ، وما دام فى نفس الفنان اضطراب وجزع ، ففى نتاجه اختلال وقصور .

ولورنس أمير من أمراء الكتابة الفنية عند الإنجليز بلا مراء ، لا يسبقه فى هذا المضمار أحد من كتاب القرن العشرين . ولا غرو فقد كان نادرة فى انتقاء الكلمة اللائقة ، وصياغة الاستعارة المبتكرة ، تتصرف أنامله الرقيقة الصناع فى اللغة فتخلقها خلقا جديداً ، وتضفى عليها ثوبا شعريا جميلا تجعلها أقرب الشبه بالشعر المنثور منها بالنثر الرقيق الأنيق .

وينفرد لورنس من بين سائر الكتاب بالجدة والطرافة والابتكار التى تبدهك دون كبير انتباه فيما تقرأ له من وصف وقصة ومقال . وحسبه أنه كاتب الفكرة وأنه كاتب العاطفة ؛ ولكنه ليس كاتب الفكرة الصرفة أو العاطفة الخالصة . فهو يقول « أنا أفكر » ثم يستدرك سريعا ويقول « أنا أحس » . ومن ثم فإن الفكرة والعاطفة عنده تتداخلان وتتشابكان وتطغى كل منهما على حدود الأخرى . وعهدنا بالعاطفة المشبوبة أن لها شأنا كبيرا فى تلك الرنة الموسيقية الرائعة التى تشيع فى كتابات كبار الأدباء وأئمة الروائيين . فلا عجب إذن أن يكون لأسلوب لورنس وقع جميل وسحر أخاذ .

ولد لورنس من أب سكير عربيد ، يشتغل بالتعدين فى قرية بالقرب من نوتنجهام ، وقد حرم عطف الأب منذ نعومة أظفاره ، إذ كان أبوه متهالكا على اللذات غارقا فى غمرة من المفاسد والموبقات ، فلم يلق بالا إلى أسرته ولم يرع مصالحها ، غير أن حدب الأم عوضه ما قد فقده من عطف الأب . إذ كانت أمه تنفث فيه موجة إثر موجة من ذلك الحب الحبيس الذى كانت تحتجزه لزوجها أيام أن كانت تعده رجل أحلامها ومحط آمالها . ويحدثنا لورنس فى كتابه «أبناء وعشاق «Sons And lovers كيف أن أمّاً ذاقت أهوال الجحيم كى تتعهد وليدها المريض بالرعاية والعناية ، وتنقذه من التهلكة والموت .

وليس ثمة شك فى أن لورنس كان يصور جزءاً من نفسه وبعضا من أمسه حين يعرض لهذا الحدث وما على شاكلته من الأحداث التى اكتنفته فى طفولته . وقد شعر لورنس بحب الأم المفرط يجيش فى كيانه ويجرى فى عروقه فيأسره ويتملكه . وقد يكون حب الأم خيرا فى عالم يمكث فيه الأطفال أطفالا ، غير أنه شر مستطير فى عالم يشبون فيه عن الطوق ويدخلون فى طور الرجولة . فكما أن المرء يفسد طفله كلما بالغ فى إعزازه وتدليله ، كذلك أفسدت تلك الأم وليدها بما أغدقت عليه من حب جامح فياض . فقد انقلب حب لورنس لأمه وجدا وهياما ، ويتجلى ذلك بوضوح فى مرثيته التى يشيد فيها بذكرها والتى مطلعها :

معشوقتى الصغيرة ! محبوبتى !

أقبلك قبلة الوداع ، يا أحب مخلوق إلى .

فهنا استحالت عاطفة البنوة إلى صبابة ووله ، ولم يعد لورنس ينظر إلى أمه كشىء أثير عنده عزيز عليه فحسب ، بل كمحبوبة خليقة بالتشبيب والتقديس . ويقول مدلتون مرى Middleton Murry فى كتابه « ابن امرأة Son of awoman » الذى ترجم فيه للورنس « أنه لم يكن فى مقدوره أن يسبغ حبه على امرأة أخرى ما دامت أمه على قيد الحياة . ولقد كان لهذه التنشئة أثر ضار ، إذ أشرب كاتبنا عقيدة جديدة شاذة ناضل عنها بكل قواه ، وضحى فى سبيلها بما كان يرتجى له فى ميدان الأدب من رفعة وسمو وجاه ، فما وهنت له عزيمة ، وما فترت له همة ، وما خف له حماس حتى دهمه الموت وفارق الحياة .

ذلك أن لورنس ذهب إلى القول بأنه ما من سبيل إلى فهم

الحياة على حقيقتها ما لم نتصل بالمرأة اتصالا جنسيا ، فنقرب الشقة بيننا وبين الجنس الآخر ونفهم نياته وخفاياه ، ونطلع على أحاجيه وأسراره ونبرزها للميان . وما كانت الحياة عند لورنس إلا رجلا وامرأة ، رجلا سبرنا أغواره واستقصينا أعماقه وأدركنا ماهيته ، وامرأة تحيطها بغلالة من الإبهام والغموض والإلتواء والتعقيد ،

ولا أمل لنا فى فهم الحياة ما لم تبد لنا المرأة كما هى مجردة عارية من جميع الدوافع والنوازع والمغريات والمؤثرات . وإذا كانت الحياة كذلك فلا غنى للرجل عن المرأة ، ولا غنى للمرأة عن الرجل ، فكلاهما شطر يكمل الآخر ولا ينفصل قط عنه . ومن ثم فليس ببعيد أن تثير سيرة المسيح فى لورنس الحقد والموجدة ، وتؤجج فى صدره نيران الغيظ والكراهية ، إذ كأن المسيح الشخصية الوحيدة الفريدة فى تاريخ البشرية التى تهدم نظريته من أساسها . فلم يلجأ المسيح إلى المرأة يبتغى منها أن تملأ ما فى حياته من فراغ وأن تسد ما بها من نقص . ولم يدع المسيح إلى الحياة الجنسية بؤزرها ويعضدها ، بل فرق ما بين الروح والجسد بنطاق من الطهر والعفاف ، وأحدث خرقا لا سبيل إلى رتقه ما لم نرجع إلى الحياة البدائية الأولى حيث كان اتصال الجنسين حرا طليقا لا تعوقه العوائق ولا تعترضه العقبات .

والفتح الجديد الذى فتحه لورنس فى القصة هو محاولته أن يفلسف الجنسيات . ولا أدل على ذلك من أن أسلوبه بدع فى مرماه ومغزاه ، إذ هو يسمى فى غير خجل وحياء إلى التعبير عن العلاقات الجنسية بين العشاق ، وما تستتبعه من لذة ونشوة حسيتين عظيمتين ، وقد يصيب لورنس ويجيد ويوفى على الناية ، وقد يخطىء ويخفق ويقصر دون بلوغ الناية ، ولكنه على ذلك كله حاول أن يبتدع أسلوبا غير معهود من قبل فيما كتب الكتاب وألف المؤلفون . ومن الكتاب من يثنى على لورنس لنجاحه فى التعبير عن الجنسيات ، ومنهم من يرثى لفشله فى هذا الضرب من الكتابة دون اعتبار لأى معيار من معايير الأخلاق ، فما زالت تدوى حتى الآن تلك الصرخة : الفن للفن Art fo arts saek . والذى يعنينا هو أن لورنس كان يعمد إلى كد الذهن ، وإعنات الفكر ليتحقق ما كان ينشده من التعبير عن الجنسيات فى لغة مثيرة غنية بالصور الحسية والاستعارات غير المألوفة . فما كانت المتعة الجنسية وما يدخل فى نطاقها من لذة ونشوة غير مشاعر واحاسيس خفية لا يسهل الافصاح عنها إلا عن طريق المجاز ، وبرغم ذلك كله فإن لورنس لم يظفر بالنجاح المنشود ولم يبلغ الغاية المرموقة .

ويبدو لنا التجديد الذى أدخله لورنس على القصة قويا رائعا أخاذا فى تقديمه لقصته « عشيق ليدى تشاترلى Lady Chatleily's Loves » بقوله « إن الصورة التى يفيض عليها الشعور وينحسر هى التى تقرر حقا مصائر حياتنا ، وهنا تكمن الأهمية العظمى للقصة حين نتصرف فيها تصرفا صحيحا ، فنى مقدورها أن تقود فيض شعورنا المتسق فى مواضع جديدة ، وفى مقدورها أن تقود شعورنا بعيداً فى ارتداده عن الأشياء التى انتهت إلى العدم . ومن ثم كان فى استطاعة القصة حين نتصرف فيها تصرفا صحيحا على المواضع الخفية جداً فى حياتنا ، لأن فيض الشعور المرهف فى حاجة إلى أن ينحسر ويتدفق منظفاً ومجدداً فى الأماكن الخفية العاطفية فى حياتنا » ، والذى لا شك فيه هو أن لورنس يريد أن يصور الحياة كفيض يتعاقب عليه الجزر والمد . فالحياة إذن أفراح وأتراح ، وحب وبغض ، وآمال وآلام ، وحقائق وأوهام ، ونفاهة وخطر ، إلى غير ذلك مما يضمه كتاب الحياة الى بين دفتيه . أما ما يعنيه لورنس بفيض الشعور وانحساره فهو أن النفس البشرية ذات خوالج مختلفة ونوازع متنافرة . ونحن لا نرى فى الشخوص التى يعرضها علينا لورنس فى قصصه الطويلة والقصيرة إلا النفس فى حالة قبضها وبسطها ورضائها واستيائها .

وحين ينقم لورنس على المدنية الحديثة ، ويصب جام سخطه عليها يضع نصب عينيه فلسفته للجنسيات . فالمدنية الحديثة معتلة مموجة ، مختلة مضطربة ، متداعية منهارة ، لأن الإنسان الحديث أطلق العنان للعقل . وأسلم له قياده ، وتركه يهيمن على عواطفه ، ويسيطر على حياته . حتى بلغ الأمر بالعاطفة أنها صارت نتاجا تافهاً للعقل ، ولورنس ينحى باللائمة على الرجل المتمدن الحديث لأنه باذعانه للعقل ، أفقر الدم الذى هو ينبوع العاطفة ، ومن ثم فقد أرسل لورنس غضبته المدوية بأن على المرء أن يحيا حياة عاطفية لا تكبلها الأديان ولا تحدها الطريق . ولورنس يذهب إلى أبعد من هذا فينادى بالاتصال الجنسى ويحث عليه ، إذ أن فيه تحقيقا

للحياة الفطرية العاطفية القديمة التي لا يشوبها تكلف وتصنع أو أوشاب وأدران .

ولورنس يحمل على المدنية الحديثة لأنها حطت من قدر الحياة القديمة ، وشوهت من قيمتها . ذلك لأن التكالب على جمع المال ، وتحصيل الثروة وطلب الجاه ، وحب السيطرة والرئاسة ؛ دفعت بالمرء في طريق غير مأمون العاقبة ، فأخمدت شعوره بدلا من أن تذكيه ، وأسكنت عاطفته بدلا من أن تثيرها ، ومن ثم فقد صار من الصعب أن يأخذ فيض الشعور وانحساره طريقه المعهود .

هذه النقدات الجارحات التي أرسلها لورنس عن طريق قصصه أثارت ثائرة النقاد عليه ، وأحفظتهم ضده ، فحملوا عليه حملات شعواء، ونددوا بآرائه وكتبه . وكأنه أراد أن يقابل العدوان بالعدوان ، فلجأ إلى إصدار قصته الطويلة «عشيق ليدى تشارلى» التي وصف فيها وصفاً سافراً العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . والواقع أن رغبته الجامحة في أن يكتب لجمهرة القراء قصصاً تكشف بوضوح عن انحسار العاطفة وفيضها كان بليغ الأذى بعيد الضرر .

ولقد قصر لورنس نفسه في مستهل حياته الأدبية على وصف ذلك اللون من ألوان الحياة الذي يدور على حياة المدنين المضطربة التعسة ، ونفوسهم الحزينة الكسيرة ، وآمالهم المحطمة الذابلة . ولقد وفق لورنس في هذه الناحية توفيقاً بعيداً ، وأجاد إجادة كبيرة لا تتوفر إلا فيمن خبروا مثله صنوف الألم ومتاعب الحياة في مهد الصبا وميعة الشباب . فلما تألق اسمه في سماء الأدب حين حظيت قصته الطويلة « الطاوُوس » بالرواج والذيوع ، ترك هذا اللون من ألوان القصص إلى غيره مما لم يستكشف من قبل ، وما أتينا على ذكره حين عرضنا لفلسفته . فلما كانت قصته الطويلة « عشيق ليدى تشارلى » ، لم يجد بداً من أن يشد رحاله بعيداً عن انجلترا حيث أغضب الرأى العام ، وابتدأ تجواله في طول الأرض وعرضها ، فزار فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، واستقر به المطاف في المكسيك . وهناك عاش ناعم الحال رضى البال يحيا لفلسفته ويعيش على كتبه ، وهناك أيضاً خبر الحياة البدائية الطبيعية البعيدة عن أدران المادية والمدنية .

وصفوة القول أن لورنس كاتب شاعرى النزعة يحتل مكانه في عالم الأدب بجانب أميلى برونتى ، وتوماس هاردى وغيرهما من الكتاب الذين حاولوا أن يفهموا الحياة ككل ، فلم يعرضوا لها من جانب واحد يقتلونه دراسة وبحثاً . ولئن كان لورنس قد تنكب جادة الصواب في بعض الأحيان ، فله بعض العذر إذ عاش عيشة مضطربة قاسية أملت عليه ما أذاعه للرأى العام .

ومهما يكن من شيء فللورنس على القصة فضل كبير ، إذ أدخل عليها الجرأة في التفكير والصراحة في التعبير .

فخرى قسطندى

ليسانسيه الامتياز في الأدب الانجليزى

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٨ —



آثاره في هورتون :

كان كل هذا العناء وكل هذا الكدح من أجل الشعر ، الشعر كان في قرارة نفسه بحيث لو حاول بكل ما في وسعه ألا يكون شاعراً ما استطاع . وهو يعتقد أن الله سواه ليكون شاعراً ، ولذلك فهو يعلي قدر رسالته ويجعل لها شبهاً ما بالرسالات الإلهية من سمو وخطر ؛ فلا يقتصر على طلب الحكمة والوقوف على ما هو بسبب من تلك الرسالة والإفادة منه ، بل يتطهر إلى جانب ذلك فينقي نفسه من كل شائبة ليكون لرسالته أهلاً وليتنزل عليه نورها . ثم إنه يستغرق في حال صوفية يعدها كذلك من مكونات الشاعرية فيتقرب إلى الله ويبتهل إليه ، لأنه يؤمن أن وحي الشعر يهبط من الله ، يوضح ذلك قوله : « إن مثل هذا لن يصل إليه المرء إلا بالصلاة والقنوت لتلك الروح السرمدية ، لله الذي يؤتي الحكمة ويهب البلاغة فيغني بهما الأنفس ، ويرسل رسله بالنار المقدسة من لدن عرشه فيطهر بها روح من يشاء من عباده . ويجب أن يكون مع الصلاة قراءة مختارة في جد متصل ، يصحبها تدبر يقظ ، وتعمق للأعمال والمسائل ما هو خير منها وما يبدو كأنه خير . ولقد وصف ملتن مدة إقامته هذه في هورتون بقوله : « إنها سنوات كثيرة مليئة بالدراسة والتفكير ، قضيت كلها في البحث عن المعرفة الدينية والمدنية » .

وحق لأصحابه أن يعجبوا من صبره على المقام في الريف ، وزهده في مباهج المدنية . ويعجب حتى (ديوداني) من ذلك فكتب إليه يسأله عما هو فيه ، فرد عليه ملتن قائلاً : « لقد طالما تساءلت عما أنا في شغل به ، وفيم أفكر ، فاعلم أن ذلك بمعونة الله هو الخلود . وأرجو أن تغفر لي هذه الكلمة فإنما أهمس بها في أذنك . أجل ، إني أريش جناحي استعداداً لأن أطير فأحلق تحليقة » . وكان كتاب صاحبه هذا إليه ، ورده عليه في أخريات أيامه في هورتون .

وما كان يريش جناحيه إلا ليطير في سماء عالية ، ويحلق في آفاق فسيحة ، فإن موضوعاً عظيماً لن يبرح يهجس في خاطره ، ولن يزال حديث نفسه ومنتجع هواه ؛ فأي موضوع هو ومتى ينهض له ؟ ذلك ما لم يتبينه يومئذ على وجه التحديد ؛ ولكن المرء يستطيع أن يستخلص من مادة دراسته ومن طول انكبابه عليها أنه يتأهب لرسالة عليا يتحقق له بها الخلود . ويقول الدكتور جونسون في هذا الصدد : « من هذا الذي يعد به وقد جمع فيه بين الحاسة والتقوى والتعقل يمكن أن نتوقع الفردوس المفقود » .

على أنه لا يزال بينه وبين الفردوس المفقود سنوات طويلة ، فماذا جرت به يراعته في هورتون ، أو على الأصح ماذا تغنت به قيثارته ؟

نظم ملتن ثلاث قصائد ، وغنائيتين مسرحيتين إحداهما قصيرة تقرب من مائتي سطر ، والأخرى طويلة تنيف على الألف . ولئن عظمت شهرة قصيدته الكبرى « الفردوس المفقود » فيما بعد حتى بهر نورها القلوب والأبصار ، وأنسى الناس هاتيك القصائد

التى نظمها فى هورتون ، فإن جمهرة النقاد متفقون على أنه بلغ ذروة الفن فى تلك القصائد الخمس ، وعلى أنه لو لم ينظم غيرها ، لكانت كفيلة أن تحله فى الصفوة المختارة من الشعراء الغنائيين فى العالم كله قديمه وحديثه ، إن لم تجعل له موضع الصدارة بينهم أجمعين .

وقد نشرت تلك القصائد سنة ١٦٤٥ بعد رحيله عن هورتون بست سنوات ومعها بعض أشعاره اللاتينية. وكان ما ذكره ملتن عنها أنها بمثابة امتحان لقدرته وأنها مقدمة بين يدى وعده فحسب ، ولم يفتأ بعدها يعد بعمل خالد فى دنيا الشعر دون أن يشير إلى تلك القصائد كأنه نسيها أو كأنه لا يرى فيها شيئا يحقق جانبا مما يعد به ، وتكشف تلك القصائد الجميلة الخمس ، فضلا عما ترى الناس من مقدرته الفنية ، عن كثير من خلجات نفسه واستجابة حسه ونوازع قلبه ، ومتجه فلسفته . لذلك كانت عظيمة الخطر كسجل لحقبة من حياته ، أما تلك القصائد فهى «الليجرو» ، و «البنسروزو» و «أركاوس» و «كومس» و «ليساوس» .

أما الأولى والثانية فكلتاهما تعيض الأخرى فى موضوعها ؛ فمعنى الليجرو فى الطليانية «الرجل الطروب» ومعنى البنسروزو «الرجل المتفكر» . وتصف الأولى كيف يكون المرح واللهو فى أحضان الطبيعة وفى زحمة الدنية ، وتصف الثانية كيف يكون التفلسف فى الحياة والركون إلى العزلة ، والتفكر بين الأوراق والكتب . وأما الثالثة فهى الغنائية القصيرة . وأما الرابعة فهى الغنائية الطويلة . وأما الأخيرة فهى فى رثاء صديق

* * *

افتتح ملتن قصيدته الأولى «اللِيجْرُو» بقوله «إليك عنى أيها الأسى المتلكئ» ثم راح يصف الأسى فصوره فى صورة مخيفة سوداء . وحسبك أن ينعته أنه ولد من أحلك سواد فى منتصف الليل ، ومن الكلب الخرافى ذى الرؤوس الثلاثة والذيل الثعبانى ، ذلك الوحش الذى يقوم على حراسة أغلاق العالم السفلى ؛ ويولد الأسى من هذين مجتمعين فهو ابنهما ... ويعود الشاعر فيقول : «اذهب أيها الأسى فابحث عن مأوى لك بين الأشباح المرعبة والصراخ والمناظر الخبيثة حيث يمد الليل الكئيب جناحيه الحريصين على الظلام ، وحيث تغنى البومة طائر الليل هنالك تحت الظلال السود وتحت الصخور المكتئبة المتداعية كذوائبك المهوشة . اذهب أيها الأسى ، وابق أبدا فى تلك الصحراء الخرافية القصية المظلمة التى ينتهى عندها العالم فى الغرب على حافة المحيط » .

وينتقل الشاعر بعد هذه الصورة الكريهة إلى مناجاة الفرح فيقول:

« أقبلى أيتها الآلهة الجميلة الطليقة التى سميت فى السماء « أفروسين »(١) ، وسماك الناس السرور الذى يشرح الصدر ؛ أنت يا من ولدتك ڤينوس(٢) وحملتك وأختين لك أخريين إلى باخوس(٣)؛ أنت يا من حملت بك أورورا(٤)، وهى تلاعب زفير(٥) حيث لقيها أول أيام مايو وهما يمرحان على سرر من البنفسج الأزرق والورود الجنية تفتحت لساعتها وغسلها الندى ، فجئت ابنة حسناء بضة مرحة . ثم يمضى الشاعر يعرض صور المرح الذى تجلبه معها عذراء الأساطير التى يناديها ، فهناك الشباب المتوثب الطروب ، واللعب والبسمات العذاب ، والضحك الذى يمسك جنبيه . ويعود فيهتف بتلك العذراء ، ويسألها أن تسرع إليه تخطر على أطراف أصابعها مصطحبة معها عذراء الجبل ، الحرية الحلوة ممسكة إياها بيمناها ، ويشعر المرء بالبون العظيم بين ما سرده من صور الأسى وبين ما صوره من أشكال المرح وأنماطه ، ويقابل بين الناحيتين فتزداد كل منهما انجلاء تلقاء الأخرى .. »

ثم يعمد ملتن إلى فنه الذى امتاز به فيرمى فى أسطر متتابعة إلى صور كثيرة متلاحقة يرسلها واحدة تلو الأخرى ، يريد أن يقول : إنها أطياف الفرح يوحيها إلى النفوس إذا لاذت به . وكلها مما يملأ القلوب بهجة ونشوة ، «فهناك ضوء القمر فى الليل الساجى وغناء القبَّرة ينبعث من برجها العالى فى السماء ، ثم صياح الديك بعد ذلك يبدد به الظلام ، بينما يسوق أمامه فى نشاط حسانه إلى باب الحظيرة ، ثم كلاب الصيد ونفيره توقظ فى مرح الصباح الناعس ، والشمس تنحدر من الباب الشرقى متشحة بالشعل فتبدد السحب ، والحراث يصفر لحنا على مقربة من الأرض التى خططها بالأمس ، وحالبة اللبن تغنى طربة ، والرعاة يتلو كل منهم

(١) إحدى إلهات الجمال والرقة الثلاثة ومعنى اسمها البهجة وأختاها هما « أجاليا » أو الضوء و « ثاليا » أو النماء .
(٢) إلهة الربيع فى الأساطير اللاتينية .
(٣) إلهة الخمر .
(٤) إلهة الفجر .
(٥) ريح الغرب المؤذنة بالربيع .

قصته إلى جانب الألفاف الخضراء ، والقطعان والمراعى والمروج الخضر ، والجبال والنهيرات والأنهار الواسعة تجتليها العين فى نظرة ، والأبراج الشاهقة بين الأشجار لا يبعد أن تكون مقراً لذات حسن ، فهى لذلك مهوى البصر لكل عين قريبة ؛ ويتراءى غير بعيد دخان ينبعث من كوخ قائم بين شجرتين عتيقتين باسقتين من أشجار البلوط ، حيث يطعم الرعاة طعامهم الشهى الريفى قدمته إليهم الراعيات ، ثم انطلق النساء منهن والصبايا إلى الحصاد يحصدن الزرع ويسوينه حزماً ؛ وثمة فرحة أخرى طليقة يبتعها مرأى القرى القريبة يلحن للعين على مرتفع ، هنالك حيث تصلصل الأجراس المرحة تباعاً ، ويغنى المزمار الطروب فيشجى الفتيان والصبايا ، إذ يرقصون جماعات فى الظلال الرقطاء ، وقد خرج الكبار والصغار يرتمون ويلعبون فى يوم بطالة ضاح ، ولن يزالوا فى مرحهم حتى ينطوى ضوء النهار الطويل . ثم إن لهم بعده متعة فى الصهباء تدار عليهم أكوابها إلى جانب المواقد ، ومتعاً فى حكاياتهم عن الحصاد وموسمه يقضون فيها شطراً من الليل ... »

ولن ينسى الشاعر أن يورد صور المرح فى المدينة ، وقد وفاها حقها فى القرية ، فينتقل بخياله إلى المدن ذات الأبراج وما تزدحم به من أخلاط الناس وأنماطهم ، وفيهم زمر الفرسان وذوو البأس من البارونات ، يتفق لهم فى ملابس السلم نصر عال على أسراب الغوانى ، تمطر أعينهن البراقة السحر على من يبتغون الوسيلة إلى قلوبهن ، ومن يرتقبون مايجزين به اللباقة والفروسية ، إذ تسعى كلتاهما جاهدة للظفر بعطف ملكة الجمال . ويستطرد ملتن فى وصف متع المدينة ومباهجها ، فيسوق منها صوراً متتالية كأنها صور فلم بهيج : فثمة حفلات الأعراس وإليها يشير فى مهارة بذكر « هيمن » إله الزواج فى أساطير الإغريق بملابسه الصفراء ومصباحه الذى يلوح به ، وثمة الولائم والسوامر ومعالم الزينة تتخللها الغنائيات المسرحية بمشاهدها القديمة ، كما يتخللها مايحلم بمثله شعراء الشباب فى أمسيات الصيف على ضفاف الغدران المنزلة ، يضاف إلى ذلك روعة التمثيل ، فإما ملاهى بن جونسون وإما ملاهى أحلى الشعراء فناً ولحناً ابن الخيال الساحر شكسبير يتغنى فيها بألحانه البرية ألحان غابات وطنه ومشاهدها[1] .

(١) يشير ملتن بذلك إلى الفرق بين فن بن جونسون الذى تثقف الأغريقية واللاتينية وفن شكسبير الذى غنى على سجيته ولم يعرف إلا قليلا من الأغريقية وأقل منه من اللاتينية .

ويعود الشاعر فى ختام قصيدته الرائعة إلى مناجاة إلهة الفرح فيسألها أن تحيطه بجو ملىء بالأغانى الشعرية الجميلة التى تدرأ عن القلب الهم الذى يأكله ، تلك الأغانى الرقيقة العذبة التى تتمثل فى الشعر القوى الرصين يجمع بين جمال السبك ومهارته ، وروعة الفن وفتنته ، فيبلغ من السحر ما يحطم به ما يقيد النفس من قيود الحياة ومشاكلها فتحررها من نشوة الموسيقى ، ويبلغ من الجمال ما يوقظ به أرفيوس[1] نفسه ، فيرفع نفسه من غفوته الذهبية على سريره المتخذ من أزهار الجنة ، ويستمع إلى تلك الألحان التى لو كان تغنى بمثلها لاستمال إليه أذن بلوتو ...

تلك هى خلاصة قصيدته الأولى اللييجرو ، وشتان بين هذه الخلاصة فى لباس النثر وفى لغة غير لغتها ، وبين الأصل فى لباس الشعر وفى بلاغة ملتن وبراعة فنه وروعة لحنه !

* * *

ويفتتح ملتن قصيدته « البنسروزو » بنقيض ما افتتح به قصيدته الأولى فيقول : « إليك عنى أيتها المسرات الخادعة ، من الحماقة وحدها ولدت بغير أب . ما أقل عودك على العقول الرزينة ، وما أقل ما تبثينه فيها من الأعاجيك ... استقرى فى بعض الرؤوس الكليلة ، وسيطرى على تلك المخيلات المولعة بما لايحصى عدده من الأباطيل والمظاهر البراقة ، تبلغ فى كثافتها وعددها ما يبلغ الهباء المعلق فى أشعة الشمس »

ويناجى الشاعر الشجن ليأتى إليه ، وينعته بالحكمة والقدسية ، بل يغلو فيجعله أقدس مايلحق به التقديس ؛ ويصف آلهة الشجن بأنها أعظم سناً من أن تطيقها عيوننا ، وعلى ذلك فأننا نراها مجللة بالسواد ، ولكن هذا السواد لن يشينها ، فما أشبهها بمملكة أثيوبيا الجميلة التى غالبت فى الأساطير جنيات البحر فبذتهن ملاحة وأغضبتهن بذلك وأساءت إليهن .

ولا يفتأ الشاعر يدعو هذه الآلهة إليه مصطحبة من يليق من رفقة ، ويضفى عليها صفات الحكمة والتؤدة والتعقل والوقار

(١) أرفيوس . فى الأساطير الأغريقية . أهدى إليه أبولو قيثارة بلغ من مهارته فى العزف عليها أن كان يتبعه الصخر والشجر والوحوش أينما سار وقد أراد أن يستنقذ زوجته بسحر الموسيقى من بولوتواله العالم السفلى .

والدأب والجد ، وبصورها تنقل بصرها من السماء إلى الأرض متدبرة متفكرة ، أما الرفقة التي نصطحب فالسلام والهدوء والصوم والعزلة والتأمل والصمت ؛ ويجعل الشاعر من هذه المعاني شخصيات فيتحدث عنها ويصفها كأنما يتحدث عن أشخاص .

ويعرض الشاعر أنماطاً من الصور تناسب حالة التفكر التي يصف أو ماسماه الشجن العاقل . وبقدر ما كان في قصيدته السالفة من مرح وجلبة وفتون ، تنطوي قصيدته الثانية على الوجوم والهدوء والسكون . وأكثر صوره هنا في الليل ، فهو يحب أن يمد سمعه إلى صوت الكروان ، ويحب أن يمشي في سكون تحت القمر حتى يبلغ في السماء أقصى ارتفاعه ؛ ويحب أن يجلس في ضوء مصباحه في هدأة الليل لا يسمع إلا صوت خفرائه ، فيقرأ فلسفة أفلاطون ، ويقرأ الشعر والمسرحيات والقصص الرفيع . والليل هو الوقت الذي يعشق فهو قائم كله لا يبرح مكانه حتى الصباح كما لا يبرح الرب الأكبر من النجم أفقه ، فاذا كان الصباح فليكن صباحا تكتنفه الغيوم وتتناوح فيه الرياح الهوج ، ويتساقط المطر ؛ وإذا ما قدر للشمس أن تبدد الغيوم بعد لأي فليتوار عن ضوئها في كوخ أو في عش منعزل بين الشجر لا تقع عليه عين ، وهناك فليتم حتى ينهض وفي أذنيه موسيقى حلوة من ألحان جن الغابة . وهو يحب أحيانا أن ينقل الخطا متأملا في فناء كتدرائية قوطية عتيقة عالية الأقواس ، توحي إلى النفس ذكرى الدين ، ثم يستمع إلى الأرغن يتصاعد في الجو لحنه فيذيبه اللحن من فرط انتشاء روحه ويستنزل كل ما في السماء حتى يراه ماثلا أمام عينيه . وأخيراً فما أحب إلى نفسه أن يقضي عمره في صومعة منعزلة حيث لا يبرح يطلب الحكمة ويستزيد من المعرفة مما هو بسبب من كل ما في السماء وما في الأرض ، حتى تهيىء له خبرته الطويلة حالا أشبه بحال النبوة .

وتلك هي خلاصة قصيدته الثانية ، وهي من حيث الأسلوب والبيان والفن الشعري كسابقتها روعة بناء وبراعة تصوير وقوة أداء وسمو فن ، كما أنها مليئة كأختها بالاشارات إلى أساطير الأغريق والرومان فلا تكاد تخلو فقرة منها من إله أو آلهة .

ولا يكاد يفرغ المرء من قراءة القصيدتين حتى يتبين أنهما تصفان حياة الشاعر في عزلته بهورتون ، فذلك الأليجرو أو الفتى الطروب هو ملتن في إحدى حالاته ، وذلك البنسروزو أو الفتى التفكر هو كذلك ملتن في حالته الأخرى ، وما هاتيك الصور التي صورها في القصيدتين إلا ما كان يقع تحت بصره من حياة الريف ومباهجه وحياة المدينة ومسراتها ، ثم ما كانت تحسه نفسه من حب العزلة وطلب الحكمة والانكباب على الدرس ، وما كان يهجس في خاطره من تطلع إلى حالة كحالة النبوة .

أما من حيث الفن فقد بلغ ملتن في هاتين القصيدتين ذروة الشعر الغنائي ، ولم يبلغ قبله ولا بعده من الشعراء في لغة قومه مثل ما بلغه من السمو فيهما . ولا تزال القصيدتان حتى اليوم ينظر إليهما شعراء الغناء نظرتهم إلى قمتين شامختين تطاولان النجم ، وينطق سموها بالتحدي والاعجاز . ولا تجد في وصفهما أبدع مما ذكره ما كولي عنهما إذ يتعرض لبيان خصائص شعر ملتن ، فعنده أن من أبرز خصائصه قدرته على أن يؤثر في نفس قارئه بما توحيه ألفاظه من صور وأخيلة وأفكار تتداعى من بعد ، أكثر مما يؤثر فيها بالمعنى الذي يؤديه اللفظ ، فكأنما ينتقل تأثيره إلى ذهن القارىء بهذه الصور وبهاتيك الأخيلة والأفكار كما تنتقل الكهرباء إلى هدفها خلال موصل . وكذلك من أشهر خصائصه جزالة اللفظ وإشراقه وجماله وعذوبة موسيقاه وهي جميعاً أظهر ماتكون في قصيدتيه السالفتين . يقول ما كولي : « لن تجد هذه الخاصة أظهر في شيء مما كتبه ملتن منها في الاليجرو والبنسروزو ، ويستحيل على المرء أن يتصور أن تبلغ الصياغة اللغوية درجة أرفع في الكمال مما بلغته فيهما . وتختلف هاتان القصيدتان عن غيرهما كما تختلف خلاصة العطر عن ماء الورد العادي ، أو كما يختلف ذلك القدر الغالي من العطر الذي نعبه حريصين عليه عن ذلك السائل المائع الرقيق .

وما هما في الحقيقة بقصيدتين أكثر مما هما طوائف من التلميحات ، يستطيع كل امرىء أن يتخذ من كل واحدة منهما قصيدة لنفسه ، فكل تلميحة وصف منها كافية لبناء مقطوعة »

ولم تخل القصيدتان من هنات يتمسك بها النقاد ، ولكنها أقل من أن تشينهما أو تنزل بهما عن المستوى الفذ الذي بلغتاه . ونحب أن نرجىء الكلام عن هذه الهنات حتى نفرغ من شعره كله في هورتون ثم ننظر فيما له وما عليه .

(يتبع) **الخفيف**

الاسلام والحكمة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لا يزال هناك فريق من الناس ينفر من الحكمة وعلومها ، ولا يعلمون ما للحكمة من شأن عظيم فى الإسلام ، وأن القرآن نوّه كثيراً بشأنها ، وذكر أن من فضل الله على بعض الأنبياء أنه أوتيها ، وجمع بينها وبين النبوة ، ومن أولئك الأنبياء الذين جمعوا بينهما ، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضله فى ذلك يربو على فضل كل الأنبياء . ولا غرو فهو الذى أخرج من تلك الصحراء القاحلة ، أمة كانت ترتع فى البداوة والجهالة ، فجعلها خير أمة أخرجت للناس ، شأن العلم عندها أرفع شأن ، تحمل مصباحه بيمينها لتضىء به العالم شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، لا تبغى بذلك إلا وجه العلم ، ولا تقصد من ورائه مغنما من مغانم الدنيا ، ولا تجعله وسيلة لحكم الشعوب وإذلالها ، ولا تحتكره لمصلحتها ، ولا تكتمه عن الشعوب لئلا ينتفعوا به كما تنتفع به ، وكان العلم مشاعا فى عصرها بين كل الأمم ، وكان العلماء فى عهدها موضع التجلة على اختلاف شعوبهم وأديانهم ، وكان علمهم موضع التقدير والاحترام ، وتشد إليه الرحال فى سائر الأقطار ، وتبذل نفائس الأموال فى الحصول على كتبه من بلاد الروم ، ومن بلاد غيرهم من الأمم السابقة فى الحضارة ، فلم يكن هناك حواجز من دين أو غيره بين العلماء ، ولم يكن هناك حواجز من دين أو غيره بين العلماء والملوك ، فاجتمع العلماء إخوانا فى مجالس العلم ، لا فرق بين مسلم ونصرانى ، ويهودى ومجوسى ، وصابئ ووثنى ، وقد أزالت رابطة العلم مابينهم من فوارق ، وغمرتهم بفيض عظيم من التسامح ، إذ كان شعار هذه الأمة التى جمعت بينهم ، أن الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها ، وأن العلم غاية المسلمين يطلبونه ولو بالصين ، وأن فضل العالم على العابد كفضل النبى صلى الله عليه وسلم على أدنى رجل من المسلمين .

ولم يكن هذا كله إلا لأن القرآن الكريم رفع شأن العلم والحكمة على كل شأن ، وجعل تعليم الحكمة من الأغراض التى بعث من أجلها الأنبياء ، ليقضوا بها على الجهل والطغيان ، ويحلوا مقام العلماء فوق كل مقام ، فتصلح الدنيا بعلمهم وحكمتهم ، ويسعد الناس بهديهم وإرشادهم .

وقد جاء تنويه القرآن الكريم بالحكمة على وجوه شتى ، فمرة ينوه بشأنها فى ذاتها ، كما جاء فى الآية — ٢٦٩ — من سورة البقرة « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب » .

ومرة يعقد سورة باسم حكيم من الحكماء ، وهو لقمان بن باعورا الحكيم القديم ، وقد ذكر الله فى هذه السورة ممتناً ما آتاه من الحكمة ، فقال فى الآية — ١٢ — من آياتها (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد) .

ومرة يجعل الحكمة مما تفضل به على بعض أنبيائه ، فيذكر أنه تفضل بها على إبراهيم وآله ، فى الآية —٥٤— من سورة النساء (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) .

ويذكر أنه تفضل بها على داود ، فى الآية — ٢٠ — من سورة ص (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) .

ويذكر أنه تفضل بها على عيسى ابن مريم فى آيات كثيرة ، فيقول فى الآية — ٤٨ — من سورة آل عمران (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) ويقول فى الآية — ١١٠ من سورة المائدة (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة) الآية .

ويذكر أنه تفضل بها على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه بعثه فى أمة أمية لينقلها بتعليم الدين والحكمة ، من الأمية إلى العلم ، ومن البداوة إلى الحضارة ، فيقول فى الآية — ١٢٩ — من سورة البقرة (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) ويقول فى الآية — ١٦٤ — من سورة آل عمران

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) ، ويقول في الآية — ٢ — من سورة الجمعة (هو الذي بعث في الأميين رسولا ، منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وقد جاء بعد هذه الآية آية لها شأن نبينه فيما يأتي ، وهي قوله تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم)

وقد اضطرب المفسرون في بيان معنى الحكمة اضطرابا كبيراً ، فذهب فريق منهم إلى أن المراد بها السنة ، وهي ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها المعرفة بالدين ، والفقه فيه ، والاتباع له . وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها العلم بأحكام الله تعالى ، التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمعرفة بها منه . وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها الفصل بين الحق والباطل ، وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها معرفة الأحكام والقضاء ، وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها العقل والفهم ، وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها كل كلمة وعظتك ، أو دعتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح .

ولقد تهيب هؤلاء المفسرون أن يحملوا الحكمة على معناها الشائع عند العرب وغيرهم ، لأن كلمة الحكمة عند العرب ترادف كلمة الفلسفة عند اليونان ، وتُنطَقُ عندهم (فيلا سوفيا) وفيلا معناها الإيثار ، وسوفيا معناها الحكمة ، وقد اشتق العرب من ذلك كلمة الفلسفة بمعنى الحكمة ، كما اشتقوا كلمة الفيلسوف من (فيلوسوفوس) بمعنى الحكيم ، وهو في الأصل بمعنى المؤثر للحكمة .

ثم جاء بعد هؤلاء المفسرين فريق لم يتهيب ما تهيبوه ، من حمل الحكمة على معناها الشائع عند العرب وغيرهم ، فذهب إلى أن المراد بالحكمة معرفة الأشياء بحقائقها ، وهو بعينه ما يقوله العلماء في تعريف الفلسفة ، من أنها العلم بحقائق الأشياء بقدر الطاقة البشرية ، وعلى هذا يكون تعليم الكتاب إشارة إلى العلوم النقلية ، ويكون تعليم الحكمة إشارة إلى العلوم العقلية ، وهي العلوم التي تدخل تحت كلمة الحكمة أو الفلسفة ، وتشمل ما يشمله اسم الفلسفة النظرية والعملية .

ولا يراد من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأمته إلا أن يهيئها له ، بأن يعلمها الدين الصحيح ، ويعمل على محو الأمية فيها ، بتعليمها القراءة والكتابة ، ويحبب إليها النظر في العلوم على اختلاف أنواعها ، ويرشدها إلى الاستفادة ممن سبقها من الأمم إلى درس العلوم ، لتبنى على أساسها ، وتقوم بقسطها في النهوض بها ، فتؤدي زكاة العقل في رفع منار العلم ، والوصول به إلى ما لم تصل إليه الأمم قبلها ، ولا تقف به عند الحد الذي وصل إليه قبل أن تتناوله . فلا يتم ذلك إلا بالتدريج ، وهو سنة الله في الترقي والنهوض ، وهذا هو الذي تشير إليه الآية السابقة في سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم) فقد قيل إن المراد بالآخرين الفرس ، ويؤيده ما روى عن أبي هريرة قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ، قال — وسلمان الفارسي فينا — فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ، وقال : والذي نفسي بيده ، لو كان الإيمان بالثريا ، لتناوله رجال من هؤلاء .

وقيل إن المراد بهم التابعون ، وقيل هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى يوم القيامة . وقد كان أن تلك الحركة العلمية الإسلامية أخذت في التدرج إلى أن دخل الفرس في الإسلام ، وهم قوم لهم سابقة في العلم والحضارة ، فوصلت بهم الحركة العلمية الإسلامية إلى ذروتها ، ودونت على عهدهم العلوم الدينية ، ونقلت علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، فدرسها المسلمون ، وبذوا فيها من تناولها قبلهم من السابقين ، وحققوا بذلك ما وعد الله من تعليمهم الكتاب والحكمة ، وما كان الله تعالى ليخلف وعده .

وما أخطأ المسلمون حين أخذوا علوم الحكمة عمن سبقهم إليها من الأولين ، لأن الله قد حثنا على النظر في الآية — ١٨٥ — من سورة الأعراف (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون) فهذا حث على النظر في جميع الموجودات

والتأمل فيما أودعه الله فيها من عجائب وأسرار ، لاستنباط العلوم والمعارف التي تدل على عظيم قدرته ، وتشهد ببديع حكمته .

فإذا وجدنا نظراً لمن كان قبلنا في جميع الوجودات ، ووجدنا لهم علوما تعنى ببحثها وكشف أسرارها ، وجب علينا أن ننظر في تلك العلوم ، وأن ننقل ما ألف فيها من كتب إلى لغتنا ، لنستعين بها فيما أمرنا الله به من النظر في الوجودات ، ولا نضيع زمناً في بحث ما سبقونا إلى بحثه فيها ، فما كان فيها موافقاً للحق قبلناه منهم ، وما كان غير موافق للحق صححناه لهم ، ولا يصح أن يمنعنا خطؤهم من الانتفاع بصوابهم ، كما لا يصح أن يمنعنا من النظر فيها أن يضل بعضنا به ، لنقص في فطرته أو لغير ذلك من الأسباب ، لأن هذا الضرر إنما يلحقها بالعرض لا بالذات ، ولا يصح أن يترك ما يكون نافعاً بطبعه لضرر يوجد بالعرض فيه ، وشأنها في ذلك شأن العسل ، حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يسقيه أخاه ، فزاد إسهاله به ، فلما شكا ذلك إليه قال له : صدق الله وكذب بطن أخيك . يعني صدقه تعالى في قوله في الآية — ٦٩ — من سورة النحل (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

وليست هذه العلوم وحدها هي التي عرض لبعض أصحابها ذلك الضرر ، فقد عرض مثله لكثير من العلوم ، كعلم الفقه الذي يعد من أمهات العلوم الدينية ، فكم من فقيه كان الفقه سبباً لقلة تورعه ، وخوضه في الدنيا ، مع أن صناعته تقتضي بالذات الفضيلة العملية .

ولقد حوى القرآن الكريم كثيراً من مسائل تلك العلوم ، ولا سيما مسائل الحكمة العملية ، لأن الدعوة إليها هي الأهم ، أما الحكمة النظرية فليس من شأن الأنبياء تقرير مسائلها ، وليس من شأن الكتب المنزلة شرح علومها ، وإنما يوجه الأنبياء الناس إليها توجيها ، وتشير الكتب المنزلة إلى بعض مسائلها إشارة مجملة .

وقد جاء ما يمكن أن يعد فصلا من الحكمة العملية في سورة الإسراء ، وذلك من قوله تعالى في الآية — ٢٣ — (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً) إلى قوله تعالى في الآية — ٣٩ — (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر ، فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) .

ولقد حوت السنة النبوية كذلك كثيراً من مسائل الحكمة العملية ، كما حوت كثيراً من مسائل الحكمة النظرية ، كالطب وغيره ، وكان من طبه صلى الله عليه وسلم مايسمى الطب النبوى ، وقد وضع العلماء فيه كتباً أثبتوا فيها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في هذا العلم ، وقد شهد له المقوقس أمير مصر بهذه الحكمة ، وذلك حين أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه هدايا فيها طبيب ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هداياه ، وقال للطبيب : ارجع إلى أهلك ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع . وقيل إن رسول النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي قال ذلك للمقوقس ، فقال له : أنت حكيم جئت من عند حكيم .

وكان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حكيم يقال له الحارث ابن كلدة ، رحل إلى مدرسة جنديسابور ، فتلقى علوم الحكمة من الطب وغيره على فلاسفتها ، ثم رجع إلى بلاد العرب فاشتغل فيها بعلاج المرضى ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يأمر أصحابه بالعلاج عنده .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر وجد من فلاسفتها يوحنا النحوى فقربه عمرو من مجلسه ، وكان يصغى إليه ويستمع إلى حكمته ، ويُعْجَبُ بما يسمعه منها ، ويكثر من الثناء عليه .

وكذلك فعل الملك الصالح عمر بن عبد العزيز مع حكماء عصره وكان في ذلك كله تمهيد للنهضة العلمية الكبرى ، التي حصلت في عهد العباسيين ، فزخرت بها البلاد الإسلامية علما وحكمة ، وصار المسلمون في ذلك العهد حكماء العالم ، والفضل في ذلك للنبي الحكيم ، الذي قضى على تلك الأمية ، ومهد لمن جاء بعده طريق الحكمة .

عبد المتعال الصعيدي

فى كتاب البخلاء

« طبعة وزارة المعارف »

لأستاذ عظيم

— ٢ —

فى الجزء الاول

جاء فى صفحة ١١٢ : « واستلف منه على الإسوارى مائة درهم فجاءنى وهو حزين منكسر فقلت له : إنما يحزن من لا يجد بدا من إسلاف الصديق ، مخافة أن لا يرجع إليه ماله ، ولا يعد ذلك هبة منه ، أو رجل يخاف الشكية ، فهو إن لم يسلف كرما أسلف خوفا » قال الشارحان فى قوله : ولا يعد الخ ، الواو للحال والجملة حال من فاعل يرجع ، أى غير حاسب أن ذلك المال الذى استلفه هبة بل كأنه حق له لا يرد .

وأقول إن هذا تعقيد فى الإعراب وفى التفسير إذا أخذنا عبارة المتن كما هى، إذ يكون المتعين فيها اعتبار جملة (ولا يعد ذلك) حالا من فاعل (يجد) أو من فاعل (اسلاف) الذى هو نفسه فاعل يجد ، وإذن فالمعنى أن الذى يحزن إنما هو الرجل الذى يضطر إلى أن يعطى الصديق سلفة غير عاد إياها هبة . أما إذا أريد جعل جملة (ولا يعد الخ) حالا من فاعل (يرجع) كما يقول الشارحان فلا بد من حذف حرف النفى (لا) قبل (يعد) ويكون المعنى : مخافة أن يمسك المستلف عن رجع السلفة عادا إياها هبة .

وفضلا عن هذه الصورة الثانية التى تقتضى حذف لا مع بقاء (يعد) مرفوعا ليستقيم تفسير الشارحين يجوز مع حذف لا أيضا أن ينصب هذا الفعل بالعطف على يرجع .

وجاء فى صفحة ١١٤: «وكان يقول : أشتهى اللحم الذى قد تهرأ ، وأشتهى أيضا الذى فيه بعض الصلابة . وقلت له مرة : ما أشبهك بالذى قال أشتهى لحم دجاجتين » وقال الشارحان فى تفسير قوله (وقلت له مرة) أى لما قال أشتهى اللحم الخ . وكان مقتضى الظاهر أن يقول : فقلت له الخ .

وأقول إنما يصح الاعتراض لو كان الجاحظ ذكر أن ذلك البخيل (قال) أو (قال مرة) ؛ أما وقد ذكر أنه (كان يقول) فمعنى هذا أن قول البخيل تكرر مرارا ، فالجاحظ أجابه على مرة منها .

وجاء فى صفحة ١٢٠ : « ثم قال خالد هأنذا مبتلى بالمضغ ، ومحول على تحريك اللحيين ، ومضطر إلى مناسبة البهائم ، ومحتمل ما فى ذلك من السخف والعجز . ما أبالى ! احتملته فيمن ليس لى منه بد ، ولى عنه مذهب» وقال الشارحان : وقوله فيمن ليس لى منه بد الخ ، أى فى مؤاكلة من لا فرار من مؤاكلته كأولادى وأهل بيتى . وفى النسخ التى بين أيدينا : (فيمن لى منه بد ، ولى عنه مذهب) وهو تحريف ظاهر لا يلائم السياق ، ولا سيما أن بد لا يعرف استعمالها إلا مقرونة بالنفى .

وأقول إن هذه العبارة التى فى النسخ الأخرى لا يمكن أن تكون صحيحة حتى على فرض أن كلمة بد يجوز استعمالها بغير نفى؛ وذلك لأن المعنى يكون مكررا فى عبارتين تكريرا سخيفا لا يقبله الجاحظ ولا خالد القسرى الذى يدعى الرواية عنه . والذى عندى أن الجاحظ يكون قد أراد أنه احتمل ذلك المظهر السخيف فى الأكل سواء مع أهل بيته الذين لا يستطيع التوارى منهم ولا يخشى تقدمهم إياه ، أو مع أضيافه الغرباء الذين يستطيع التوارى منهم فيأمن شر تقدمهم . وعلى هذا الترديد المستوفى لأوضاع الصورة المتعينة فى هذا المقام تكون جملة الجاحظ هى : (ما أبالى آحتملته فيمن ليس لى منه بد ، أو فيمن لى عنه مذهب) وذلك بهمزة الإستفهام وأم التى للتسوية . ويصح أن تكون الجملة تقريرية إثباتية منفصلة عن (ما أبالى) فتكون صحتها : (احتملته فيمن ليس لى منه بد ، وفيمن لى عنه مذهب) بإضافة كلمة فيمن فى الفقرة الثانية ، ليستقيم الوضع العربى .

وجاء فى صفحة ١٣١ : « وقيل له أيضا : فكيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال : والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا حبس نزف السحاب ما تجافى عن رغيف » وقال الشارحان فى تفسير ذلك : لو ألقى الخ ، هكذا فى نسخة الشنقيطى . والطعام البر بضم الباء . أى لو أعطى من الطعام مقدارا لو جعل كومة واحدة

فارتفعت حتى وصلت إلى السحاب ، فمنعت ماءه من أن يصل إلى الأرض ، ما تجافى الخ .

وأقول : إن العبارة محرفة وإن التفسير تعسفي لوروده على أصل غير صحيح ، والأصل كما أرى هو : « بقدر ما إذا يبس نزف السحاب » ، أى لو أن الله رزقه من الأرغفة بمقدار لو يبس لنزف ماء السحاب وتشربه ، لما نزل منه عن رغيف . وهذا كناية عن البخل البالغ درجة لايتصور وقوعها العقل . ويلاحظ أن قوله ما تجافى عن رغيف يفيد أن الطعام هنا ليس هو البر بل هذا الخبز ورغفانه .

وجاء فى صفحة ١٥٧ : «وأنتم أيضاً إنما اكتريتم مستغلات غيرنا بأكثر مما اكتريتموها منا ، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم ، وأعطونا من أنفسكم مثل ماتريدونه منا» ، وقال الشارحان: إذا رجعنا إلى نسخة ليدن وجدنا هناك اضطراباً فى الضمائر لايفهم منه معنى . لذلك وضعنا (غيرنا) بدل (غيركم) و (منا) بدل (منه) و (منا) بدل (منهم) ، وهذا ما نظنه الوضع الأصلى .

والذى أراه أن العلة فى هذا الغموض هو تصحيف وقع فى كلمة (أكريتم) فسارت (اكتريتم) . فإذا أصلحناهذه الكلمةوحدها استقامت العبارة بدون احتياج لكل التغييرات التى لجأ إليها الشارحان ؛ إذ يكون المعنى : إنكم أيها المستأجرون قد أكريتم أى أجرتم من باطنكم مستغلات مملوكة لغيركم بأجرة تزيد على الأجرة التى استأجرتم بها من أصحاب الملك ، وأنتم لا تجدون على أنفسكم حرجا من اقتضاء هذه الأجرة الزائدة من المستأجرين من باطنكم ، فسيروا فينا كسيرتكم فى هؤلاء المستأجرين من باطنكم وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منا .

كل ما قد يعترض به على هذا التفسير أن أولئك المستأجرين من الباطن لم يذكروا فى العبارة حتى يعود عليهم الضمير فى كلمتى فيهم ومنهم — ولكن وجودهم مفهوم حتما من سياق العبارة . وكأن الواضع أشار إلى هذا باستعمال كلة غير على لفظها المفرد وإعادة الضمير عليها فى (منه) بصيغة المفرد ، ولو كان الضميران فى فيهم ومنهم عائدين على (غير) لرامى النسق وجعلهما هاء فقط .

وجاء فى صفحة ١٦١ : « وليس كل خرق يُرْقَع، ولا كل خارج يَرْجِع » والأشكل (يُرْجَع) .

وجاء فى صفحة ١٦٨ : « فإن للنفس عند كل طارف نزوة ، وعند كل هاجم نزوة » . وقال الشارحان : لعلها نزرة ، مصدر للوحدة من نزره إذا استعجله وألح عليه ، لأننا نستبعد على الجاحظ مثل هذا التكرار .

وأرى أن صواب الكلمة (بزوة) من بزا عليه يبزو بزوا تطاول . وبزاه وأبزاه وأبزى به : قهره وقوى عليه .

وجاء فى صفحة ١٧١ : «وأنت لم تنفق الحرائب ، وتبذل المصون ، إلا وأنت راغب فى الذكر والشكر ، وإلا لتخزن الأجر ... » وقال الشارحان : وأنت لم تنفق الخ ، فى النسخ (لو لم) ونعتقد أن لو مقحمة من النساخ كما هوظاهر . وأنا أعتقد أن كلمة (لو) ضرورية. ويلوح لى أن السبب فى قول الشارحين إنها مقحمة من النساخ هو أنهما قرآ هذه الجملة مفصولة من جواب الشرط ، وهو قول الجاحظ فى أول الصفحة التالية : (فقد سرنا لقلة عدد خبزك الخ) .

وجاء فى صفحة ١٧٤ : « فاحسب أن البخل عليهم غالب ، وأن الضعف لهم شامل ، وأن سوء الظن يسرع إليهم خاصة ، ثم لا تداوى هذا الأمر بما لا مؤنة فيه ؟ »

وقال الشارحان : فاحسب أن الخ . أى هب البخل غالباً عليه الخ ، وقوله : (البخل) أى فكرة الحكم عليك بالبخل ويجوز أن تكون كلمة البخل محرفة عن الخجل .

وعندى أن كلمة البخل محرفة عن (التجنى) المذكورة فى السطر السابع من صفحة ١٧٣ ، وبها يستقيم المعنى لا بهذا التخليط ، وأرى أن كلمة (ثم) فى الجملة محرفة عن (فلم ؟) .

وجاء فى صفحة ١٧٧ : « قلت هذا ما لا شك فيه ، وقد علمت عندى بالصواب ، وأخذت لنفسك بالثقة ، إن وفيت بهذا القول » وأنا أظن أن (علمت) محرفة عن (عملت) وهى ومابعدها جواب الشرط الآتى فى قوله : إن وفيت بهذا القول ؛ لأنه لامحل لقوله علمت بعد قوله هذا ما لا شك فيه . وما أتى به فى الشرح سهو ظاهر

« له بقية »

قصة الذرة

للأستاذ فوزى الشتوى

دوى اكتشاف آل كورى فى العالم أجمع خواص الراديوم العجيبة الغريبة ، وخلق مجالًى حديث وبحث واسع النطاق ؛ فاحتضنه الأطباء لعلاج الأمراض المستعصية مثل السرطان ، ولكنه أوجد صداعا دائما لعلماء العلوم الطبيعية الذين يريدون تفسير ظواهره وخواصه وسر اشعاعاته وقوته البالغة .

أحسوا أن كل علومهم عن الطبيعة والمادة معلومات قليلة القيمة لا تزال فى مهدها . فلم يعد أى عالم يستطيع الجهر بأنه يدرك شيئا عن سر المادة . فهل الذرة وحدة صماء لا تنقسم أم هى عالم آخر غير العالم الذى أدركوه وفكرة أخرى غير التفكير والمنطق الذى ساروا على هديه كل تلك السنين ؟

وكان المعروف فى أواخر القرن الماضى أن عناصر عالمنا تتألف من سبعين عنصرا — وقد زادت الآن إلى ٩٢ — مثل الأكسوجين والحديد والذهب وغيرها . فهل هذه العناصر هى الوحدات التى تتركب منها مواد الكون ؟ أم أن الطبيعة تحتفظ بسر ما زال مجهولا ؟

كانت ظاهرة الإشعاع فى الواقع أمراً يستدعى كثيراً من العلم والتجربة لتفسير خفاياها . وأحس العالم بحاجته الماسة إلى تجارب عظيمة متشعبة ليكشف نواحى الغموض التى تحيط بالأشعاع . فاندفع العلماء بكل نشاط فى هذا السبيل تخدمهم المصادفة مرة وخدمتهم علومهم أخرى فتكللت أبحاثهم بالنجاح .

الذرة المعقدة

ولم يمض وقت طويل حتى انغمر العلماء فى أبحاث الذرة . فحتى تلك اللحظة كان العلماء يعتقدون أن الذرة أصغر الجسيمات فأثبتت أشعة إكس المجهولة ، والنشاط الأشعاعى أن الذرة بناء شديد التعقيد مؤلف من جسيمات أصغر . وكان أول رواد هذا البحث السير تومسون أستاذ العلوم الطبيعية فى جامعة كبردج بانجلترا . ولم يقتصر عمله على الأبحاث والنتائج التى وصل إليها بنفسه بل درب فريقا من الشبان ليواصلوا العمل وحدهم ، ويكتسبوا الشهرة الدولية . ومنهم السير ارنست رذرفورد والبروفسور ولسون والبروفسور لنجفين الفرنسى .



شكل — ١ أول رواد الذرة السير توماس

بدأ تومسون تجاربه على أشعة إكس (المجهوله) ولكنه احتاج أن يعود إلى تجارب كروكس وأنبوبته . وأنت تذكر أن سيالها الكهربائى كان ينحرف بالمغناطيس كما تذكر أن كروكس أطلق على الأشعة حالة رابعة للمادة سماها حالة الأشعاع . وقد أثبت تومسون أن دقائق هذه الأشعة أصغر من الذرة وسماها Corpuscle جسيمة ولكن العلماء أطلقوا عليها فيما بعد إسم Electron الكهرب أى وحدة الكهرباء .

والمعروف أن الايدروجين هو أخف العناصر الكيماوية ، وأن ذرته هى أخف الذرات ؛ وقد أدت تجارب تومسون إلى حقيقة غريبة محيرة ؛ فإنه أثبت أن وزن كهربها يساوى واحدا إلى ١٨٠٠ من وزن ذرة الإيدروجين . فكان هذا الكشف أول فتح فى مجاهل تركيب الذرة وبنائها . فمم يتألف باقى تكوينها ؟

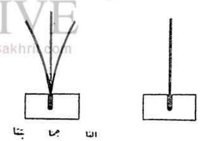
ومن الحقائق التى يسهل استنتاجها أن تلك الكهارب سالبة الشحنة الكهربائية لأنها منبعثة من مهبط كروكس السالب . وليس من شك أن الشحنة الكهربائية السالبة تحتاج إلى شحنة موجبة تعادلها . فإن المواد فى حالتها الطبيعية الساكنة يجب أن تكون متعادلة الشحنات الكهربائية ولهذا استولى الشك فترة على العلماء فى حقيقة كشفهم للكهارب السالبة . ولكنهم لم

يأسوا بل استمروا فى طريقهم حتى يثبت ما يلغى نظريتهم الأولى أو تستقر بكشف باقى تكوين الذرة .

ألف باء الذرة

ولم تمض فترة حتى وفق أرنست رذرفورد أحـــد تلاميذ تومسون ومساعديه إلى تفسير معقول . فأجرى مجموعة كبيرة من التجارب البارعة لتحليل الأشعة المنبعثة من عنصر الراديوم . ومنها أثبت أنها تتألف من ثلاثة أنواع سماها على حروف الهجاء اليونانية وأولها ألفا Alpha والثانية بِتّا Betta والثالثة جاما Gamma .

وكانت طريقة التحليل بسيطة ولكنها كانت من أهم الأسباب فى ذيوع اسم رذرفورد وأهلته فيما بعد لأن يحتل مركز أستاذه تومسون . وقد ذكرنا من قبل أن العلماء عرفوا ناحية واحدة من بناء الذرة وهى الكهارب السالبة التى يتحتم أن تتعادل بكهارب موجبة فأين هى هذه الكهارب الموجبة ؟



شكل — ٢ حال ردز مورد شعاعات الراديوم، وترى إلى اليمين وهي مندفعة فى خطوط مستقيمة ، وإلى اليسار بعد مرورها من مجال مغناطيسى وقد أصبحت ثلاثة .

فلو أتيت بكتلة من رصاص بها جحر عميق ، ووضعت فى هذا الجحر قطعة راديوم فإن الأشعة تخرج من الجحر مستقيمة ولكنك لو مررتها فى مجال مغناطيسى فإنها تنقسم إلى ثلاث شعب تنحرف إحداها إلى اليمين، والثانية إلى اليسار، بينما يسير الثالثة فى خط مستقيم . ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن ندرك أن الأشعتين اللتين تنافرتا مختلفتا الشحنة . وقد سميت الموجبة منهما بأشعة ألفا بينما سميت السالبة بأشعة بتا ، أما الأشعة المتعادلة فاطلقوا عليها اسم جاما .

وثبت أن أشعتى ألفا وبتا تتألفان من جسيمات صغيرة تحمل الشحنات الكهربائية ولكن أشعة جاما ليست مكهربة وهى عبارة عن إشعاعات ضوئية وإن اختلفت عن أضوائنا الكهربائية فى قصر موجتها .

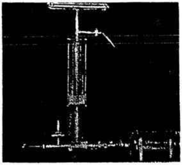


شكل — ٣ صورة أشعة منطلقة وقد انحرفت فى النهاية لاصطدامها بنواة ذرة أخرى فى الجهاز الخاص .

وأثبت رذفورد أن أشعة جاما تشبه أشعة إكس فى موجتها ولكنها أقصر ، أما أشعة ألفا فقد بهرته كما بهرت العالم فقد وجدها ذات شحنة كهربائية موجبة . وكانت أثقل فى الوزن من أشعة بتا السالبة كما أن سرعتها المتدرجة الزيادة Velocities كانت أقل منها ، وقد قاس رذفورد سرعة هذه الأشعة فوجدها تنطلق بسرعة عشرين ألف ميل فى الثانية .

حجر الفلاسفة يتحقق

واستولت الدهشة على رذرفورد حين حلل أشعة ألفا بالمرقب الطيفى Speltroscope فإنه وجدها تتحول إلى غاز هليوم . وبمعنى آخر إن ذرات الراديوم تفرز ذرات هليوم ، وكان الكشف غريبا . ولكن ماوليه كان أغرب فقد انتقل إلى التجارب على اليورانيوم فوجد أن استخلاص أشعة ألفا وبتا منه تحولانه بالتدريج إلى مادة أخف فى وزنها الذرى ثم تصبح راديوم فإذا والينا استخلاص الأشعتين منه تحول إلى معدن الرصاص .



شكل — ٤ فى هذا الجهاز يمكن تصوير الجسيات وخط سيرها

وبهذا الكشف تحقق حلم الأقدمين فى تحويل المادن إلى بعضها البعض ، فقد كانوا يطمعون فى تحويل المادن الخسيسة مثل الرصاص والحديد إلى ذهب وفضة من المادن الثمينة . وقد حقق رذرفورد حلمهم ، ولكن بالعكس ، فاكتشف أن اليورانيوم والراديوم يتحولان إلى هليوم ورصاص .

وبهذا الكشف وضع رذرفورديد العالم على المفتاح الذى أتاح للعالم اختراع القنبلة الذرية ، والذى يرجى بعده استغلال الطاقة الذرية . ومن يدرى ، فمجال التكهن واسع الآفاق لم يعد قبله من نهاية ولا مستحيل !

فوزى الشتوي

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٠٢ — هكذا هى النفوس البشرية

قال أبو القاسم السلوى الفخَّار : دخل علينا شيخنا الابلى يوما وأنا أعجن طين الفخارة ، فقال لى : ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة ترد عليها ؟ فقلت أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره ، فأدركه وجد عظيم حتى إنه صاح وقام وقعد ، وبقى هُنَيَّات(١) مطرقا برأسه مفكراً ثم قال : هكذا هى النفوس البشرية .

٧٠٣ — قضيب البان الموصلى

فى (تاريخ ابن الوردى) : عزم قاضى الموصل أن يقول للسلطان فى إخراج قضيب البان من الموصل . قال : فرأيت قضيب البان مقبلا على هيئته المعروفة ، فمشى خطوة فاذا هو على هيئة كردى … ثم مشى خطوة فاذا هو على هيئة بدوى … ثم مشى خطوة فاذا هو على هيئة فقيه … بصورة غير الصورة المتقدمة ، وقال لى : يا قاضى ، هذه أربع صور رأيتهن ، فمن هو قضيب البان منهن(١) حتى تقول للسلطان فى إخراجه ؟ ! فلم أتمالك أن أقبلت على يديه أقبلهما .

٧٠٤ — اكتف بالبلاغة …

كتب عبد الله بن زياد الحارثى إلى المنصور رقعة بليغة يستميحه فيها فوقع عليها : إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا لرجل أبطراه ، وإن أمير المؤمنين مشفق عليك فاكتف بالبلاغة ..

٧٠٥ — بأى ذنب نتفت

كان بلال بن أبى بردة لا يجيز شهادة من ينتف لحيته أو يأكل الطين . قال ابن طباطبا فى بعض من كان ينتفها :

يا من يزيل خلة الرحمن عما خُلقت
هل لك عذر عنده إذا الوحوش حشرت
فى لحية إن سئلت بأى ذنب نتفت

٧٠٦ — اسم ممدود وجمعه مقصور

فى (بغية الوعاة) للسيوطى : هذه فائدة رأيت ألا أخلى منها هذا الكتاب : رأيت فى تاريخ حلب لابن العديم بخطه قال : رأيت فى جزء من أمالى ابن خالويه : سأل سيف الدولة بحضرته ذات ليلة : هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصور ؟ فقالوا : لا ، فقال لابن خالويه : ما تقول أنت ؟ قلت : أنا أعرف اسمين ، قال : ما هما ؟ قلت : لا أقول لك إلا بألف درهم لئلا تؤخذ بلا شكر ، وهما صحراء وصحارى وعذراء وعذارى . فلما كان بعد شهر أصبت

(١) هنيات : جمع هنية ، فى (النهاية) : أنه أقام هنية أى قليلا من الزمان ويقال هنيهة أيضاً . فى (المصباح) : مكثت هنيهة أى ساعة لطيفة .

(١) ابن الوردى : فى سنة (٥٧٠) توفى الشيخ قضيب البان الموصلى بالموصل . قال الشيخ على الفريقى : دخلت على قضيب البان ببيت له بالموصل فرأيته ملء البيت ، ثم عدت إليه فرأيته فى زاوية البيت على قدر العصفور فخرجت ثم عدت إليه فرأيته كحاله المعتاد …

السبكى : من الكرامات الطور بأطوار مختلفة وهذا الذى تسميه الصوفية بعالم المثال ، ويثبتون عالما متوسطا بين عالمي الأجسام والأرواح سموه عالم المثال وقالوا : هو ألطف من عالم الأجسام وأكثف من عالم الأرواح ، وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة من عالم المثال ، ومنه ما حكى عن (قضيب البان) انه اتهمه بعض من لم يره يصلى بترك الصلاة وشدد النكير عليه فتمثل له على الفور فى صور مختلفة وقال فى أى هذه الصور ما رأيتنى أصلى .

حرفين[1] آخرين ذكرهما الجرى فى كتاب التنبيه وهما : صلفاء وصلاق[2] (وهى الأرض الغليظة) وخبراء وخبارى (وهى أرض فيها ندوة). ثم بعد عشرين سنة وجدت حرفا خامسا ذكره ابن دريد فى الجمهرة وهو سبتاء[3] وسباتى (وهى الأرض الخشنة).

٧٠٧ — ما رأيت رهنا مثله قط

تقدم رجل إلى بقال يسأله شيئا ، فامتنع ، فدنا منه فسارّه فدفعه إليه . فقيل له ما قال لك ؟ قال: رهننى طلاق امرأته (وذلك أنه حلف بالطلاق أنه يرده غدا) .

فقال بعضهم : ما رأيت رهنا مثله قط .

٧٠٨ — ولا قاضٍ فأقضى ولا زوج فأرضى

قال أبو العباس الخضرى : كنت جالسا عند أبى بكر محمد ابن داود (الظاهرى صاحب كتاب الزهرة) فجاءته امرأة فقالت له : ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممسكها[4] ولا هو مطلقها ؟

فقال : اختلف فى ذلك أهل العلم، فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب[5] ، ويبعث على التطلب والاكتساب .

وقال قائلون : يؤمر بالإنفاق ، وإلا يحمل على الطلاق .

فلم تفهم قوله وأعادت مسألته ، وقالت له : رجل له زوجة لا هو ممسكها ولا هو مطلقها .

فقال : يا هذه ، قد أجبتك عن مسألتك ، وأرشدتك إلى طلبتك ، ولست بسلطان فأمضى ، ولا قاض فأقضى ، ولا زوج فأرضى . انصرفى رحمك الله . فانصرفت المرأة ولم تفهم جوابه .

٧٠٩ — وأبناء اليهود

قال الصفدى : كان أبو البركات بن ملكا يهوديا وأسلم ، وكان كثيرا ما يلعن اليهود . قال مرة بحضور ابن التلميذ : لعن الله اليهود .

(١) الحرف : الكلمة .

(٢) فى القاموس : صلا فى بكسر الفاء .

(٣) السبتاء كالصحراء وقيل : أرض سبتاء لا شجر فيها .

(٤) لا ممسكها أى أنه لا يقدر على نفقتها .

(٥) احتسب بكذا أجرا عندالله: اعتده ينوى به وجه الله. والاحتساب فى الأعمال الصالحات وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر (القاموس ، اللسان) .

فقال : نعم وأبناء اليهود .

فوجم أبو البركات لذلك وعرف أنه عناه .

٧١٠ — طبيب . . .

فى (شذرات الذهب) : قال ابن حجر : كان علاء الدين على بن نجم الدين — رئيس الأطباء بالديار المصرية — فاضلا مفتنا ، وكان ذا حدس صائب جدا ، يحفظ عنه المصريون أشياء كثيرة ، وكان له مال قدر خمسة آلاف دينار قد أفرده للقرض ، فكان يقرض من يحتاج من غير استفضال[1] بل ابتغاء الثواب.

قال المقريزى : كان يصف الدواء للموسر بأربعين ألفا ، ويصف الدواء فى ذلك الداء بعينه للمعسر بفلس .

٧١١ — فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

قال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشراب: ما انصفتها، تضحك فى وجهك ، وتعبس فى وجهها !

إذا ذاقها وهى الحياة رأيته   يعبّس تعبيس المقدم للقتل

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال :

إذا أقطب وجهى حين تبسم لى   فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

٧١٢ — السكر ، السكران

السكر ما زال معه العقل حتى لا يفرق بين السماء والأرض ، ولا بين الطول والعرض .

وقيل هو أن يجمع بين اضطراب الكلام فهما وإفهاما ، وبين اضطراب الحركة مشيا وقياما .

ويحكى أنه لما جلس أبو بكر محمد بن أبى داود الأصفهانى الظاهرى بعد أبيه يفتى استصغروه فدسوا إليه رجلا وقالوا له سله متى يكون الرجل سكران ؛ فسأله الرجل فقال : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم . فعلم بهذا الجواب موضعه من العلم . قيل للامام أحمد بن حنبل بماذا يعلم الرجل أنه سكران ؟ فقال : إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره ، ونعله من نعل غيره.

(١) أخذ حقه واستفضل ألفا إذ أخذه فاضلا عن حقه (الأساس) فى (البدر الطالع) : لم يكن الطبيب محمد بن صالح الجيلانى الفارسى يعالج الفقراء احتسابا كسنة بقراط فى الأوائل ، وابن زهر وصاحب الحاوى فى المتأخرين ، ويحتج بأن الموت خير للفقراء .

نجـــاة الرُّبّان

بمناسبة افتتاح مسجد (القصاصين) الذى أنشأته وزارة الأوقاف تذكارا لنجاة صاحب الجلالة الملك .

للأستاذ كامل كيلانى

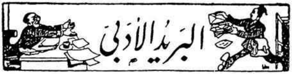
فاروقُ يا نورَ اليقين ... ويا منـــارَ العاملين
يا بَسْمَةَ الأيامِ وال ... آمالِ والفـــوزِ المبين
يا باعثَ النهضاتِ ، يا ... وَحْيَ الهُداةِ المصلحين
يا غُرَّةَ الأجيـالِ مُشْـ ... ـرِقةً على طولِ السِّنين
يا جَنَّةَ الوادى الخصيـ ... ـبِ وحارسَ الوادى الأمين
يا فرحةَ الإقبـالِ وال ... إسعادِ للعانى الحزين
يا مَعْقِدَ الأمَلِ الكريمِ ، ... ومَعْقِلَ الفضلِ الحصين
وملاذَ مَوْهوبينَ تحـ ... ـفِزُهم لشأوِ الخالدين
بكريمِ صُنعِكَ مقتدين ... وبنورِ رأيكَ مُهتدين
هتفوا بفاروقٍ وغَنَّوْا ... — حين غَنَّوْا — صادقين
عـــرفوكَ رائدَهم وأنْـ ... ـتَ لكلِّ توفيقٍ ضَمين
ألطافُ بِرِّكَ جَمَّـــةٌ ... مَوْفورةٌ للعـــائذين
الجهلُ قـــد حاربتَهُ ... والفقرُ والداءُ الدفين
بحُســـامِ رأيٍ حاسمٍ ... وقناةِ عزمٍ لا تلين
تأســـو بيُمناكَ العليلَ ... وتَمسحُ الدمعَ الهتون
طَلْقَ المُحَيَّا ، نافذَ اللمحاتِ ، ... وضَّـــاحَ الجبين
نوراً يُشِعُّ سعـــادةً ... فى قلبِ مَكلومٍ حزين
نجَّاكَ يا فـــاروقُ ما ... يسَّرتَ من خَفْضٍ ولِين
نجَّـــاكَ أمنُ اللهِ ، يا ... أمنَ الضِّعافِ الخائفين
وحَباكَ بالألطافِ اللطيفُ ، ... كما حَبَوْتَ القاصدين
كفَّاكَ أمسكتـــا بحبـ ... ـلٍ من عنايتِهِ متين
للـــبِرِّ أنتَ نجوتَ وال ... إحسانِ فى دنيا ودين
نجَّاكَ بِرُّكَ بالضعيفِ ، ... وذاكَ أجـــرُ المحسنين
وأتاكَ غَوْثُ اللهِ ، يا ... غوثَ اليتـــامى المعوزين
وصنائعُ المعـــروفِ تُنْـ ... ـجِى ربَّها فى كلِّ حين
نجتِ الكنـــانةُ والعُرو ... بةُ إذ نجا حامى العرين
اللهُ نجَّـــاهُ فنجَّى ... رُكْنَ نَهْضَتِنا الرَّكين
إنَّ السَّفينَ إذا نجا ... رُبَّانُها نجتِ السَّفين

أبدعتَ فى التعميرِ فَنّاً ... رائعـــاً للمُبدعين
أودعتَ شُكرَ اللهِ أسْـ ... ـلوبَ الملوكِ الصالحين
أسلوبَ عرفانِ الجميلِ : ... جميـــلِ ربِّ العالمين
ونظمتَ فى مَغْناهُ بيْـ ... ـتاً عامراً بالمؤمنين
بيتاً على التقوى يؤسَّـــسُ ... آيةً للشاكرين
يدعُونَ للفـــاروقِ فيـــه ... دعوةَ المتبتِّلين
فيُرَدِّدُ الدعـــواتِ أمْـ ... ـلاكُ السماءِ مؤمِّنين

وهــــم ...

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

لقد ثار بى — مُذْ أنْ ظَنَنْتِ — التوهُّمُ
وقرَّ بنفسى أنَّ قتلِى مُحَتَّمُ
وأنكِ قـــد عُوجلتِ قبلىَ رحمةً
من القدرِ الجارى ، ومثلُكِ يُرْحَمُ
لقد شاء أن يُعفيكِ من هولِ مصرعى
أوافيـــكِ نَحُولاً يُضَرِّجُنى الدم
وبات يقينى أنَّ قتلىَ واقـــعٌ
وإنى له المستنظِرُ المتـــوسِّمُ
قضيتُ الليالى بعـــد موتكِ مُوجَساً
كما أوجسَ القتلَ الشريدُ المجرَّمُ
أعيشُ وهـــذا مصرعى مِلْءُ خاطرى
منَ الوهمِ مرفوعٌ لعينى مجسَّمُ



إلى الأستاذ محمود أبو رية :

في الصفحة ٦٠٧ — ٦٠٨ من كتاب (عمر بن الخطاب) تأليف الأخوين : علي وناجي الطنطاوي ، محاولة تحقيق قضائي في مقتل عمر رضي الله عنه ، فيه إدانة لكعب الأحبار وبيان لشركائه ، فياحبذا لو اطلعت عليه وأتممت هذه المحاولة ، وأكملت التحقيق ، ومهّدت لـ (الحكم) .

(دمشق) ابن مصطفى

هما لعروة بن أذينة :

في عدد الرسالة ٦٦٥ لاحظ فأنكر الأديب ابراهيم التزي نسبة البيتين . قالت :

(وأبثثتها وجدي فبحت به)
قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي ؟ فقلت لها
غطى هواك وما ألقى على بصري

لعمر بن أبي ربيعة . والبيتان لعروة بن أذينة كما قال الأستاذ الألمعي الطنطاوي في (غزل الفقهاء) . في الشعر والشعراء والأغاني ج ٢١ ساسي ، والأمالي للقالي ج ٢ ص ١١٠ طبع الدار وسمط اللآلي ج ١ ص ١٣٧ ، والتنبيه على أوهام القالي ص ٢٧ ، وأمالي المرتضى ج ٢ ص ٧٣ مقنع أي مقنع .

محمد الطنطاوي
مدرس بكلية اللغة العربية

تُرَوِّعني منه على الوهم مِيتةٌ
ممزَّقةٌ شوهاء حمراء عَندم
وتمتدُّ أيامي فأخطب وُدَّه
وأركب مَتْنَ الليل والليل أيْهَم
تدبُّ بجسمي هزَّةُ الرَّوْع والرضا
إذا خِلْتُ أنْ الهولَ آتٍ مُيَمِّم
يُسكِّن نفسي أنْ تحقق حَدْسُها
وتَذكرُ ما أُعفيتِ منه فتَبسم
وينجاب ليلي لم يُضَرَّجْ بمَقتلي
ألا إنه الوهمُ الكذوب المخيِّم
فكيف أعزّي النفس عنك مُعلَّلاً
وكلُّ تعِلاّتي حديثٌ مُرَجَّم

عبد الرحمن صدقي

ذخائر الأدب العربي في العراق :

نوهت مجلة (الرسالة) الغراء بعددها (٦٦٣) في حقل (البريد الأدبي) بأن اللجنة الثقافية للجامعة العربية بحثت في جلستها الأخيرة مشروع إنشاء معهد لإحياء المخطوطات العربية الموجودة في العالم ، وتصوير أقيمها وأفيدها ووضعها تحت تصرف العلماء والباحثين والناشرين في أطراف العالم ؛ لضمان الوصول إلى كنوز الفكر العربي وحفظ تراثه الموجود من الضياع والتشتت .

وقد تذكرت — لدى قراءة هذا النبأ — مئات المخطوطات العربية المكدسة في العراق ، وبخاصة في النجف وكربلا والحلة ، وفي بعض المكتبات الخاصة الشهيرة في بغداد والكاظمية ، وفي مكتبات الجوامع ، وجميعها لا تزال مخطوطة لفحول علماء وأدباء العربية والتي تتناول مختلف المواضيع والأبحاث العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذه المخطوطات لا تزال للآن ومنذ مئات السنين تعبث بها يد البلى بدون أن يقيض لها من يعيدها إلى الحياة ، ويعمم فائدتها على قراء اللغة العربية ، وذلك لعدم وجود الناشر والمطبعة أولا ، وللكسل المستولي على من يملك هذه الذخائر النفيسة ثانياً .

فحبذا لو توسطت اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية لدى وزارة المعارف العراقية لجمع هذه المخطوطات النفيسة وإرسالها إليها لفحصها ومعرفة قيمتها الأدبية ، وتقدير فائدة تصويرها ونشرها ، ولا يكلف هذا العمل سوى تشكيل لجنة من بعض ذوى الاختصاص والمعرفة لجمع هذه الذخائر من أماكنها المختلفة فى العراق فتسدى بذلك خدمة جليلة لأدبنا العربى ، وتحيى فى الوقت نفسه هذه المخطوطات العربية وتنشر منها ما كان ذا فائدة وأهمية فى الوقت الحاضر .

(بغداد) **مهدى القزاز**

جامعة أدباء العروبة :

ألف فريق من رجال الأدب والفكر فى العالم العربى جمعية باسم « جامعة أدباء العروبة » تهدف إلى دعم الصلات الثقافية بين أبناء العروبة فى سائر أقطارها ، واستقلال الفكر العربى بخصائصه ومميزاته وتوحيد الأهداف والمثل العليا للجامعة العربية .

وقد تم تأليفها بالقاهرة على أن يكون لها فروع فى البلاد العربية .

وقد عقدت الجمعية العمومية جلستها الأولى فى مساء الأربعاء الماضى بمقر الجامعة (١٩٦ شارع محمد على) وتكونت هيئة المكتب من حضرة صاحب المعالى دسوقى أباظه باشا رئيساً ، وحضرات الأساتذة الدكتور محمد وصفى نائباً للرئيس، والدكتور إبراهيم ناجى وعادل الغضبان والدكتور فخر الدين السبكى ومحمد مصطفى حمام وكلاء ، وطه عبد الباقى سرور سكرتيراً عاما ، وجميلة العلايلى أمينة للصندوق ، وعباس حسان خضر ، وعلى توفيق حجاج وعبد الله شمس الدين ويس شاكر المهندس مراقبين .

وتألفت الهيئة الاستشارية من الأساتذة الدكتور إسماعيل حسين وحسين منير وعبد العزيز الاسلامبولى وأحمد عبد المجيد الغزالى .

طه عبد الباقى سرور

السكرتير العام

تاريخ بناء جامع نور الدين فى الموصل :

اطلعت على ما كتبه الأستاذ الفاضل صلاح الدين المنجد فى العدد ٦٦٢ من هذه المجلة (ص ٢٧٣) بشأن تاريخ جامع نور الدين الذى ورد مغلوطا فى مقالى المنشور فى مجلة سومر (ج ١ ، م ٢) فأقول إن التاريخ المذكور هو ٥٦٨ ، وقد وقع الغلط على يد صفاف الحروف .

ولم يكن هذا الغلط الوحيد فقد وقع فى المقال المذكور أغلاط مطبعية جمة ، وكنت قد أرسلت جدولا فى تصحيحها إلى مديرية الآثار القديمة فى بغداد ، ورجوته أن يدرج فى العدد القادم من مجلة سومر .

أما الجامع النورى فقد هدم من أساسه ، ويوشر بإنشائه من جديد .

(الموصل) **الدكتور داود الجلبي**

قصص فرعونية :

٣ ـ قصـــة سينوحيت

لأديب مصرى قديم

للأستاذ محمد خليفة التونسى

[ملخص ما نشر فى العددين ٦٦٣ و ٦٦٦]

[أشرك ملك مصر أمنمحعت الأول قبل وفاته بعشر سنوات ، ابنه وولى عهده أسرتسن الأول فى حكم مصر ، وكان أسرتسن يقوم بقيادة الجيوش فى حملاته على البلاد الخارجية ، بينما يبقى أبوه في العاصمة لتدبير شئون مصر .

« فى إحدى حملات أسرتسن على ليبيا كان يرافقه بطل القصة سينوحيت الذى كان حافظ أختام الملك ونديمه ومستشاره والقيم على شئون الغرباء في مملكته ، وبينما الجيش عائد إلي العاصمة من الغرب جاء رسول من القصر إلى أسرتسن ينعى إليه أباه سراً ، وسمع سينوحيت بنعيه فقرر الفرار من الجيش ومصر جميعاً لأنه رأى فى بقائه فى مصر خطراً على حياته ، بعد موت أمنمحعت واستبداد أسرتسن بالأمر فيها ، فاختفى فى أحد الحقول حتى مر الجيش على مكمنه دون أن يراه أحد ، ثم سار إلى سنفرو ثم الجيزة ، ثم عبر النيل إلي الشرق على طوف وجده هناك حتى وصل الجبل الأحمر ، ثم سار إلى الشمال مجتازاً مسلحة عند عين شمس كانت تحمي مصر من غارات الأسيويين ، ثم انحدر فى وادى كيمور (طوميلات فى إقليم الشرقية) وفيه كاد يهلك ظمأ لولا أن عثر عليه رجال من الساتى (بدو آسيا) فعرفه أحدهم وأنقذوه وأضافوه أياما عندهم ، ثم رحل إلى أدوم فبقي فيها نحو ستة أشهر ، ثم دعاه أحد أمراء فلسطين إليه فلبي دعوته ، وهناك سأله الأمير عن سبب هربه فلم يجبه جوابا يطمئن إليه ، وحاول الأمير أن يعرف منه أحوال مصر ، وأ.. ر ريبته فى قوتها بعد موت أمنمحعت وتولية أسرتسن ، ولكنه أجابه بأن مصر لم تضعف بل زادت قوة بتولية أسرتسن ووصفه له وصفاً يدل على بلاغة وإخلاص ، وكان وصفه جامعاً بين أبلغ الترغيب فى الملك والترهيب منه ، فأقطعه الأمير أرضاً وولاه ولاية يحكمها وزوجه كبرى بناته فأنجبت له كثيراً من الأبناء الذين صاروا رؤساء للعشائر فى الولاية التى يحكمها أبوهم من قبل الأمير ، وولاه الأمير قيادة جيشه فأبلى فى مكافحة أعدائه البدو وتأمين بلاده خير بلاء ثم جرت بينه وبين أحد البدو مبارزة انتصر فيها على البدوي وقتله واستحوذ على أمواله ، وقد وقعت هذه المبارزة (١) فى آخر المدة التى أقامها هناك والتى تزيد على عشرين سنة ، وقد رأى بعدها أن موقفه دقيق حرج فى اغترابه ، فاستكثر من الأموال لتكون له عوناً عند البلاء ، كما أرسل إلى ملك مصر رسالة يلتمس فيها أن يأذن له بالعودة إليها بعد أن صار شيخاً ضعيفاً ، ويصف له كيف كان فى أول اغترابه بائساً وحيداً ثم كيف صار حاكما هو وأبناؤه والذين أنجبهم على إحدي ولايات فلسطين وعشائرها ... وهذه بقية الرسالة والقصة ...]

« أو لم يأن لى أن يصفح مولاى عن جريمة هربى ، فأعود إلى وطنى ، وأسترد مكانتى فى البلاط ، وأحظى بالعيشة الراضية فى تلك البقعة المباركة التى تركت فيها قلبى . إنه لا سعادة لى إلا بأن أرجع إلى تلك البقعة حيث ولدت ونشأت ، ثم أموت وأدفن هناك ، فما أسعد من يقضى نحبه فى بلد ولد ونشأ فيه ! اشد ما تحملت — يا مولاى — فى غربتى من آلام ! وطالما صبت نفسى إلى أن أرانى فى وطنى مرة أخرى لأنعم فى جنباته بالراحة والسلام ، وما أكثر ما قدمت من القرابين للآلهة علها تنظر آلامى وتحقق آمالى . حبذا لو تكرم فرعون مصر العظيم فشملنى بعطفه ، ومكننى من أنعم بإحسانه ، وأتقدم بولائى إلى ربة قصره ، وأقف على حالها وحال بنيها وبناتها . إذن لرد مولاى إلىّ بذلك شبابى الضائع ، فهأنذا أشعر بالشيخوخة تسعى إلىّ ، والخور ينسرب فى كيانى ، والكلال يرين على عينىّ ، والاضمحلال يدب فى رجلىّ ، والفتور يتغلغل فى عروقى ، والبطء ينتاب نبضات قلبى .

ويحى ! فإن المنية القاسية لتسعى إلىّ لتختطفنى ، وما أوحى ما تقذف بى إلى الهاوية الأبدية ، فهلا يتاح لى أن ألحق بسيدة القصر سلطانة العالمين ، فأجد راحة الموت على يديها » .

لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى أتانى جواب الملك المعظم وقد حقق آمالى وما فوقها ، فقد عفا عنى وسمح لى بالعودة إلى وطنى ، وولاَّنى ولاية من قبله فى الخارج ، كما أتحفنى بكثير من الإتاوات ، وأرفقها بتحية أولاده ، وها هو ذا أمره الملكى

(١) هذه المبارزة تشبهها شبها قويا مبارزة وقعت فى فلسطين أيضا بين سيدنا داود وجبار من فلسطين يسمى جلبات (فى القرآن الكريم جالوت) بعد أكثر من ألف سنة من سينوحيت ذكرها العهد القديم : الأنبياء : صموئيل الأول : الاصحاح ١٧ الفقر ٤ — ٥٤ والقرآن : سورة البقرة : الآيات ٢٤٩ — ٢٥١ .

الكريم : « من حورس بن رع صاحب التاجين ، وحاكم مصر العليا والسفلى ، وروح النسل ، ومانح الحياة ، والخالد على مر الدهور . الأمر الملكى العالى الموجه إلى الشريف سينوحيت لإعلامه بما رأى جلالة الملك فيما التمس منه .

هأنتذا قد فررت من الدلتا إلى أصقاع أجنبية ، وارتحلت من أيدوم إلى تنو ، وجست خلال بلاد شتى طوعا لما جال بخاطرك فتأمل ، ويحك ، ما أداك إليه طيشك !

لست أدرى ماذا حملك على هذه الهجرة ، وأنت لم تجترح جرما ، ولم تحتكم إلى مجلس الأشراف لتسمع حكمه فيك . إنها أوهامك الكاذبة التى دفعتك إلى تلك الهجرة .

ولقد كان ما كان من أمرك على ما علمنا وعلمت ، فلا تتحول عما أزمعت من الرجوع إلى وطنك بعد أن وضح لك الذهب السوىّ ، كما أن مولاتك الملكة لا تزال تتألق فى القصر على غاية من الرغد والعافية ، وقد نما أولادها وصاروا زينة القصر ، واتخذوا منازلهم فى القصر ، وقد ابتهجت الملكة وأولادها بنبأ مقدمك حين نُعِى إليهم ، وسيسعدهم أن يجزلوا لك الهبات ، وأن يرعوا حقوقك . ولتثق أنك ، عند عودتك إلى القصر الذى فيه نشأت ستكون حيث يليق بك ، فدع كل ما فى يديك ، وعد إلينا بنفسك ، حتى إذا بلغت مصر فاجعل وجهتك القصر المعظم فإنك ستكون فيه زعيما على أندادك مرة أخرى .

هأنتذا تشعر بالشيخوخة تدب إليك ، والضعف يخترم قواك وقد صار التفكير فى دفنك بعد موتك يقلق فكرك ، ويعذبك . لا تجزع فإنك ستعود إلى الوطن المقدس ، حتى إذا حان حينُنُك زمّلوك بلفائف الكتان ، وصبوا عليك الزيت حنُوطا ، ووضعوك فى نعش مُذهّب قد طلى رأسه بطلاء لازوردى ، وغطى بغطاء فى شكل السماء ، وعندما تشيع جنازتك ستجرها الثيران ، وبين يديها المرتلون يُرَدِّدُون أمامك أناشيدهم ، وإذا ما أنزلت فى قبرك — حيث يقبر أبناء الملك — رقصوا أمامك رقصة الدفن ، وقام النائحون يجأرون بصلواتهم ومراثيهم لتأبينك ، ونحت القرابين على روحك ، وشيد فوق قبرك هرم من الرخام الناصع .

هذا ما ستكون عليه شمائر دفنك فى وطنك بين أهلك ، ولن تموت كما تخشى فى أرض أجنبية فيلفك الأسيويون فى أديم شاة ، ثم يشيمونك وهم يدقون الأرض ، ويبكون على جثتك إلى أن يغيبوك فى لحدك وعليك أن تبادر إلينا بالرجوع » .

كنت مجتمعا برجال قبيلتى حين أتانى الجواب ، وما كدت أستوعبه حتى خررت على وجهى ، وعفرت بالتراب رأسى ، ولم أتمالك نفسى أن أقفز وأن أطوف بفسطاطى ، وأصيح قائلا : « عجباً لى ! كيف أجاب إلى ما طلبت ، وما أنا إلا تابع تمرد على سيده ، وأبق من وطنه مهاجرا إلى أقطار أجنبية . اشدّ ما أجد من غبطة بعد أن عفا مولاى عنى وأذن لى أن أرتد إلى وطنى آمنا على حياتى ، ولأقيم فى بلاطه عالى الشأن راضى المعيشة إلى أن يوافينى أجلى » .

ولم ألبث أن كتبت إلى مولاى هذا الكتاب ، قدمته بين يدى رحيلى إلى وطنى : « إننى خادمك سينوحيت ، أتقدم إلى جلالتك بخنوعى وولائى وتحياتى ، ملتمسا العفو عما جرته علىّ حماقتى حين أبقت من مصر ، وإنك لرب المغفرة أيها الإله النبيل المهيمن على العالمين ، وإنى لأتوسل إلى رع وحورس وهاتور وسائر الأرباب العظام أن تهبك الخلود ، وتلهمك الحكمة والسداد فى كل خطاك ، وتكفل لك الأمن والسلام ، وتغدق عليك نعمها ظاهرة وباطنة ، وتبسط سلطانك على الصحراء ، وتمده على كل ما تطلع عليه الشمس من السهول والحزون .

لقد أسبغت نعمك علىّ أيها الإله الجليل كما يسبغ رع نعمه على مريديه ، وقد اطلعت على ما حاك فى صدرى فشملتنى برحمتك وهديتنى من ضلال ، وآويتنى من اغتراب . وإنه ليحلو لى أن أعيد ما كتبته يا مولاى إلىّ من روائع حكمك وآيات بلاغتك ، وما كنت إلا خادما تافها لا يستحق شيئا من هذه النعم ولا بعض هذا الاهتمام ، لولا أنك — فى جلالك ورحمتك — كالإله العظيم حورس تظلل برعايتك جميع رعيتك .

ولقد ظللت لك — يا مولاى — التابع الأمين الوفىّ فى كل ما قلت وفعلت ، وإن أمراء هذه الجهات شهداء على ما أقول

وحسبك يامولاى أن كل السكان هنا ينظرون إلى جلالتك فى خضوع الكلاب الوفية ، ما تبدلت عواطفى نحوك ، وما كانت هجرتى إلا رؤيا حالم فى الشمال بأنه قد صار نجأة فى أبو (قريب أسوان شمالا) أو رؤيا حالم من جيرة الوادى فى الجنوب بأنه رحل إلى مستنقعات الشمال ، فأنا لم أجن ذنبا أخشى مغبّته ، ولم أدنس أذنى بالإصغاء إلى الأشرار ، ولم يلهج باسمى لسان فى مجامع القضاء ، وما فتئت فى غربتى أرفع ذكرك وأشيد بعظمتك ، وما كانت هجرتى من مصر نظاما مدبرا ؛ بل خاطرا فطيرا مرتجلا تلجلج فى صدرى فانطلقت قدماى انطلاقا ، لقد قدرت الآلهة على الهجرة ، ثم قدرت لى العودة ، وهأنذا أزلف إلى جلالتك مطاطىء الرأس أملك تعفو عنى ، وتتجاوز عن سيئاتى . ولا على الإنسان أن يعود إلى وطنه ، فما مقامى فى هذه الغربة كمقامى عندك فى القصر ، أيها الملك المعظم الذى نشر الإله رع رهبتك وجبروتك على كل البلاد ، فكل سكانها ينظرون إليك خشية وهيبة بقلوب مضطربة وعيون زائغة .

سأترك كل ما فى يدىّ هنا طوعا لأمرك الكريم لمن له الأمر بعدى ، غير أنى أطمع أن تأذن لرسولك إلىّ أن يختار ما يروق له هنا . وسأبق مدينا لك وحدك بحياتى التى أنقذتها من العذاب ، وأدعو رع وحورس وهاتور ومنث — وأنت صفيها ومختارها — أن تصفيك الحياة الراضية الخالدة » .

وأقمت مهرجانا عاما نحما فى إقليم (ياع) ثم دفعت إلى أبنائى كل ما تحت يدى من أموال وأنعام ، وخلفنى ابنى الأكبر فى زعامة القبائل فاختص بكل مالى من الحدائق والبساتين والحقول والأنعام . وما فرغت من ذلك حتى وليت وجهى شطر الجنوب فى عصبة من رجال الساتى (البدو) كانت مهمتهم خفرتى فى الطريق طوال رحلتى إلى مصر ، ومضينا نغذّ السير حتى بلغنا طريق حورس قرب الفرع الشرقى للنيل حيث أقيم هناك حصن لدفع الغارات عن الحدود ، فاستقبلنا حاكم الإقليم بحفاوة ، وبعث رسولا إلى البلاط يخبر الملك بقدمنا ، وما هى إلا أيام قضيناها هناك فى طريق حورس حتى بعث الملك إلينا كبير المشرفين على مزارعه فى أسطول من السفن تحمل الإتاوات الملكية إلى العصبة التى تولت خفرتى فى أثناء الطريق من رجال الساتى ، فأذنت فيهم ، وسلمت كلا منهم ما يستحق منها ، وبلغتهم تحيات الملك وشكره ورضاه ، فحملونى تحياتهم إليه وتقديرهم لنعمته ، وكروا إلى بلادهم راجعين .

أما أنا فقد تابعت رحلتى حتى بلغت ثتوى (العاصمة) وعندما تنفس الصبح وافانى رسل الملك بدعوتى إلى المثول بين يديه ، فسرت معهم حتى بلغنا القصر ، فصافحت أرضه ، وفى فنائه وجدت أولاد الملك متهيئين لاستقبالى ، ثم اقتادنى رجال الحاشية إلى حجرة الملك الذهبية الفاخرة ، وفيها وجدت جلالته مستويا على عرشه الفخم ، فسجدت بين يديه ، وعندئذ أحسست بالعمى يرن على عينى ؛ وبالإنحلال يشل أعضائى فيمنعها الحركة ، وشبه لى أن قلبى زال عن مكانه ، وكانت قد حالت بى الحال حتى لم يعرفنى جلالته ، فأشفق علىّ ، وأمر رجال الحاشية أن يقيمونى ويحدث إلىّ برفق ولطف ، ليسرّى عنى ما ألمّ بى من الدهشة ، ويطلق لسانى مما عقله من الاستغراب ، فأحسست بالحياة تعود إلىّ بعد الموت ، وبالنطق يعود إلى لسانى بعد الحصر ، وبدأت أعى ما حولى وأتأهب لفهم ما يلقى إلىّ .

قال لى جلالته : « هأنتذا أخيرا فى القصر بعد أن جست خلال القفار ، وتمرّست بالأسفار النائية ، فقد مسّك الضر ، ونال منك الوهن ، وصرت شيخا ضعيفا حتى ليعسر تحنيط جثتك ، ماذا أنت ؟ وفيم وجومك ؟ أهو الخوف قد عقد لسانك وحصره عن الكلام ؟ » .

فاستجمعت قواى ، وتحاملت على نفسى ، وبادرت جلالته قائلا : « ومم الخوف يا مولاى ؟ إننى لم أسمع من جلالتك ما أخشاه ! إنما أنا إنسان ضعيف ، لا تؤيده قوة علوية تدفع عنه ما يوحى محضرك من رهبة فى قلبه ، وهأنذا أمامك ، وحياتى منك وإليك ، وقد وضعت حياتى كلها بين يديك » .

وما هى إلا لحظة حتى دخلت الملكة والأميرات ، وشاء جلالته أن يتبسط معى ، فقال مداعبا : « هذا سينوحيت قد أقبل كأنه أحد رجال العامو (بدو آسيا) ! » .

فتجاهلتنى الملكة والأميرات ، وهتفن معا : « ما هذا سينوحيت أيها الملك ! » .

فأجاب : « بل هو سينوحيت نفسه » .

ابتهجت الملكة والأميرات بمقدمي ، وبادرن إلى جناحهن في القصر ، وسرعان ما عدن وقد تقلدن القلائد ، وانتطقن المناطق ، وتهيأن بآلات الرقص ، وطفقن يرقصن وينشدن هذا النشيد :

جادك[1] الأربابُ بالخير العميم	أيها الملك وأصفوك[2] الخلودا
وأحاطوك بآيات النعيم	وحبَوْا[2] عهدك عزاً وسعودا
ورعا مسراك أربابُ النجوم	أين أبحرت هبوطا وصُعودا
جامعَ التاجين في تاج يقوم	حوله الثعبانُ وضّاء فريدا
فوق رأسٍ لك جبارٍ حكيم	لم يزل في كلّ ما يمضي سديدا[3]

* * *

قد أزلت البؤس عن مصر فزالا	وغدت أقدارُها في راحتيك
دان قطراها جنوبا وشمالا	لك، واستخذى[4] أعاديها لديك
كل من فيها — إذا شاء سؤالا —	لا يرى من ملجأ إلا إليك
حيث ضاق الناس بالعيش احتمالا	لم يكن معتمدٌ إلا عليك
دمت للخائف والعاني ثُمالا[5]	تبذل النعمى وتُرجى من يديك

* * *

قد حباك الحكمَ والبأسَ الإلهْ	فأزل خوفك عن هذا المريب
ويحَ سينوحيتَ قد طال أذاه	فحياه من الخوف كئيب[6]
فر من مصر بلا ذنب جناه	وهو المولود فيها والربيب
خوفه بأسك منها قد نفاه	فاتق والخوف يغري بالذنوب
فاردُد المجدَ إليه والحياه	إنه فينا ومنا لقريب

وما انتهى الرقص والنشيد حتى قال جلالة الملك « ياسينوحيت لا تثريب عليك ، فلن يصيبك ما تكره ، ولن يحيق بك سوء ، وليهدأ قلبك ، ويفرخ روعك ، إنك منذ الآن من رجال حاشيتي بل صفيي من بين جميع النبلاء ، فانطلق إلى القصر الذي اختصصناك به ، ثم عد إلينا في البزة التي تليق بك » .

وأمر الملك رجاله أن يذهبوا بي إلى خزائنه لآخذ ما أشاء من نفائسها ، وخرجت مع الأميرات وأيديهن في يديّ ، حتى بلغنا الباب المعظم ، ثم حللت قصرا من قصور الأمراء أهداه إليّ الملك ، وقد حُملت إليّ فيه خيرات كثيرة من القصر الملكي الأبيض ، وجاءتني نفائس من الحلل الملكية والعطور التي يصطفيها الملك .

وقد وجدت قصري فخما وأثاثه فاخرا ، ورأيت له جنة ذات فواكه وأشجار ، وفيه كثير من الأتباع والخدم الذين أعدوا لخدمتي ، وما كدت أحل بقصري حتى انتزعوا ثيابي الحقيرة ، وألبسوني حلة بيضاء فاخرة من الكتان ، ورشوا عليّ من أجود عطور مصر وأطيبها ، بعد أن أزالوا لحيتي وقصوا شعري ونسقوه ثم قذفوا بثيابي القديمة إلى عرض الصحراء .

ونمت هناك على فرش وثيرة ، فتذكرت أيامي بالرمل وأهله وما آل إليه حالي من نعمة في هذا القصر الفخم ، بعد أن صرت في عداد النبلاء ، وعندئذ أحسست بالشباب يعود إليّ بكل مزاياه .

أقمت بقصري منعما ، وكان الطعام يحمل إليّ ثلاث مرات أو أربعا من القصر كل يوم ، وكانت الأسرة الملكية تغمرني بإتاواتها على الدوام ، ووهب لي الملك كل ما أمام قصري من الحقول والبساتين مما لا يهبه إلا لرئيس ديوانه .

ومع كل هذه النعم التي أضفاها الملك علي لم يغفل عن أن يفي بوعده الخاص بمدفني ، فقد أمر جلالته بأن يشاد لي هرم من الرخام الناصع ، فوضع تصميمه كبير المهندسين في القصر ، وشيده كبير البنائين فيه كأتقن وأجمل ما شيد في حياته ، وقد حفر قبري تحته في صخرة ، وبعد أن تم الهرم قام رئيس النقاشين نفسه بنقشه وزخرفته ، وهكذا حظيت بما لا يطمع في الحظوة به من كان مثلي تفاهة ورقة حال ؛ ولست أرجو إلا أن أقضي ما بقي من عمري مستمتعا بجوار مولاي بما أنا فيه من فضله وبره ، حتى أفارق الحياة ، فأنقل إلى مدفني .

محمد خليفة التونسي

(١) جادك : أمطرك .
(٢) أصفوك وحبوك : منحوك دون غيرك .
(٣) سديدا : على صواب .
(٤) استخذى : ذل وخضع .
(٥) ثمالا : ملجأ ومغيثا .
(٦) كئيب عابس .